نادية الابرو
ضوء
برتقالي
رواية
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ضوء برتقالي

ضوء برتقالي

رواية

نادية الابرو

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2019 م - 1440 هـ

ردمك 978-614-01-2659-6

جميع الحقوق محفوظة

توزيـــع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

أنت بحاجة إلى شخص واحد كي ترضى

عن العالم كله...!

دوستويفسكي

يلمـع فـي معصمهـا ثقيـل، أثنت علـى جماله ومتانتـه زميلات العمل والجارات، حتى أمها العجوز الضعيفة البصر، اكتالت السوار بين يدين معرورقتين مرتجفتين، هازة برأسـها كإشـارة إلى الإيجاب والرضا، وهي التي لم تقتنِ من الحلي الذهبية إلا خاتم الزواج (حلقة) الـذي لـم يـزد وزنـه على الغرامين، وخاتم بشـذرة زرقـاء طاردَ فلول الحساد وعيون الشر ما يناهز نصف قرن وأكثر، دون أن يطالب براتب تقاعـدي أو نهايـة خدمـة كمـا حصلـت هي عليها بعد أن غسـلت من الشراشـف الآلاف، وقامت بأعمال مسـح البلاط حتى تبان صورتها فيـه، ولفـت الأطفـال بقطـع القمـاش البيضاء وهي تصلي وتسـمي، وتزداد فرحة هي الأخرى عندما يكون المولود صبياً، لا بانتظار فيض سـخاء الأيـدي التـي تمتـد نحوها محملة بالعطـاء، بل لأنها تحب أن تزف بصوتها الندي البشـارة إلى الأهل المنتظرين آخر الرواق. رغم زوال مذاق البشارة، وقد شوه التعقيد جمال الحياة، فتأتي الأم الحامل خالية من الدهشة والمفاجأة تعرف سلفاً جنس جنينها.

أزعجها فعلاً أنها قد فقدت مهنة البشير الذي يرسم في العيون المتعبة الناعسة شمساً من فرح، مكتفية بدور المواسية التي تكفكف دموع بعض الأمهات المهددات بالطلاق أو بزوجة ثانية تعرف كيف تحصد من الثمار الولد.

بيدين ماهرتين سـحبته كسـمكة لزجة، يغطيه الدم وماء البطن، صبيـاً صامتـاً، لـم تفـرح بـه كما كانت أمهـا تبتهج بالصبـي. مسـحته على عجالة من أمرها بخرقة، ولفته بأخرى، لم يحظَ (بقماط) أبيض كالآخرين، كأولى العقوبات بحقه.

لـم تحـاول أن تخـرج الماء من صدره، آملـة أن يختنق به، لكن لفيـض مشـاعر الأمومـة، ونـداء نفـس جُبلـت على حب المسـاعدة، أخـذت تطبطـب علـى ظهره بخفـة حين ازرق وجهـه مختنقاً. حملته بيـد قويـة عازمة إلى صدرها، وباليد الأخرى تلفعت بالعباءة والظلام خارجـة بـه فـي نزهته الأولى مع ليلة كانونية وقد أوشـكت ليالي عام 2017 أن ترحل مودعة.

تتلفت حولها إلى ثقوب الأبواب المغلقة، وزجاج النوافذ الذي لا يكتم سراً أو يحفظه. تتعثر خطواتها بطرف العباءة المشبع بالوحل والطيـن، تغطـس إحـدى قدميها فـي حفرة، تكاد أن تسـقط بالمولود على وجهها بعد أن بلّله المطر، مصباح الشارع يشح بضوئه، ململماً إياه تحت قبعته، مجاهداً حبات المطر التي تُبذر في الأزقة والشوارع الترابية لتجنى حفراً ومطبات وبرك مياه آسـنة، يلعب حولها الأطفال والبق على السواء.

العجب كل العجب في هذه البلاد، كيف يتكاثر المطر، دلو منه تفيض على إثره مدينة كاملة، فيخرج المحافظ وكبار المسؤولين إلى العـراء بحثـاً عـن تلـك الغيمة، ورجاء أن لا تفضح المسـتور، وتجرد بعض الكراسي من أصحابها.

يكاد الفجر أن يتشـقق من بين الغيمات كاشـفاً عن صبح كالح، وجـوه مكفهـرة وأرجـل تخـوض فـي المـاء وهـي ذاهبة فـي طريقها

إلى العمل، عمال (المسطر) سيبدأ تجمعهم الحافل بالجري خلف أصحاب العمل في مسلسل يومي.

تحث هناء الخصيب الخطى غير آبهة للمطبات والحفر التي استوقفتها، وكأنها تحاول فسح بعضٍ من اليابسة في عقل غرق من غزارة المأساة، وإيجاد زقاق ولو ترابيٍّ كي يطمئن له عقلها، ويرتاح ضميرها الذي تنازعته خمسة عقود بين شد وجذب حتى تماهت فيه وامتزجت الفضيلة بأختها الرذيلة وتشوهت الألوان.

تحت جنح الظلام، تفقس بيضته، ويبدأ الرضيع بالوقوقة والبحث بفمه يميناً وشمالاً عن حبات مطر تسللت إليه مشفقة، تحاول هناء إسكاته، لقم زقزقة عصافير بطنه بإبهامها، متخذة طرقاً فرعية، متحاشية فضول العيون رغم غمامة نعاسها، وزخات مطر لم توقف نشيدها على سقوف هي أيضاً بدأت تمطر على أصحابها.

مشت قرابة ربع ساعة تلف وتدور في أزقة الحي متكئة على الجدران الرطبة، أوشك المؤذن أن ينادي لصلاة فجر وقد تخلف الكثير عنها تحت ذريعة المطر، إلا أنها صادفت في طريقها بعض المصلين، الذين لم تقتنع قلوبهم بهذه الحجة، فإقناع العقل أشد سهولة وأقل ألماً من إقناع القلب.

شعرت بالبرودة تصعد من قدميها المتسختين بالوحل إلى بقية أطرافها، فارتعش جسدها، وضمت الرضيع إلى صدرها خشية عليه أو منه؟! لم يعد عقلها يزن الأمور كما السابق، من فتح ذلك الباب الصدئ الموصد!؟ هي أغلقته بإحكام... كيف تسرب ماء القلب ناضحاً على سقف تفكيرها؟! هي تواصل إدامته وردم الثقوب بالزفت والماستك بعد كل هزة، أو أمطار... حتماً قد أخطأت هذه المرة...

حتماً قد أخطأت، ما كان ينبغي لها... ما كان ينبغي لي أن أكسر القاعدة وأنظر إلى وجهه، ما كان ينبغي أن أفك نياط القلب المشدودة ولو للحظة، بالله كيف وقعت هذه المرة؟! كيف يسخر مني هذا الوليد الصغير؟ وشعرت بحرارة تصعد إلى صدغيها ووجنتين تركت تلك العقود الخمسة آثارها عليها، رغم أنها في الآونة الأخيرة وبإلحاح من الصديقات قد اقتنت علبة من الكريم المعالج للبشرة، متوسط الثمن، ولا تضعه إلا بموجب حرام أن تُهدر الفلوس عليه دون استعماله، فتضعه يوماً وتنسى أو تتناسى أياماً، هي واثقة أن ما أفسده الدهر لا يصلحه العطار.

اقتربت خطواتها، ارتعدت فرائصها، اهتزت ساقاها مرتعشة كقصبة يطوح بها هواء الخريف وحيدة، فتقاوم انقباض قلبها وحرقة حنجرتها، تتقدم نحو هدفها... ما بكِ؟! هي خطوات قليلة! ليست المرة الأولى!... ما بالكِ هناء!؟ ما بالكِ؟! تماسكي... أثبتي، هي خطوات قليلة وينتهي كل شيء لا وقت للتراجع... لا وقت لتلك العواطف المشبوبة، أنتِ تلمين حصادكِ وجنى زرعكِ... فهيا اقطفي، لا مكان للمترددين في هذه الحياة، ستسحقكِ بدواليبها العملاقة التي لا تقف بضغطة على المكابح.

تقدمي هناء... تقدمي، هي بضع خطوات لا غير. ارتجفت شفتاها المتشققتان، ما كان عليّ أن أنظر إلى وجهه، ما كان عليّ... كيف نسيت أهم قواعد وشروط الوظيفة؟!... الوظيفة التي اقتاتت على شبابي وأقتت منها، قسمة عادلة لا يحق لي الآن الاعتراض أو الرفض، فكلتانا كانت عادلة فيما نالت وكسبت، شباب وعمر في كفة، وأوراق نقدية قاومت شظف العيش وسدت رمق البيت في الأخرى.

هنـاء... اصحـي، أنـتِ تهدريـن وقتـكِ، لـم تبـقَ إلا دقائق قليلة وسـيتوالى قـدوم العمال والمصلين... هي دقائـق وخطوات قليلة... قليلة وينتهي الأمر، استجمعي شجاعتكِ وبرودة ضميركِ، الذي سخن فجـأة رغـم بـرودة الأجواء. هناء... خطوات قليلة، ثلاث أو أربع، لا تضميـه إلـى صـدركِ، كيـف استشـعرتِ دفء تلك اللحمـة الحمراء الطريـة؟! ألامسـت أنفاسـه وجهـكِ أم استنشـقتِ رائحتـه؟! ما بالكِ هناء؟... أنت تصعبين الأمر!

حركت قدميها الموحلتين بصعوبة على أرض زلقة، مقتربة من مكـب النفايـات، الـذي تواظـب على حراسـته متناوبـة قطط وكلاب الحـي، سـحبت طـرف إبهامهـا من فـم أحمر دقيق، فلاذت الشـفتان ببعضهمـا، رمقتـه بنظـرة أخيرة من خلف ليـل عباءتها ودموع غصت بها عيناها، وبحركة سريعة خاطفة وضعته على رأس الحاوية بعد أن امتلأ قلبها بكل أنواع الأنقاض والنفايات.

تركـت لـه ظهرهـا بعـد أن كان ذراعهـا وصدرها مهـده الدافئ، مشـت خطـوات تتلفـت خلفها، تحذر القطط مـن الاقتراب، رجعت خطوات تتأكد من غطائه، وترمق القطط بعين حقود.

رجعـت خطـوات تتأكـد من غطائه، وترمـق القطط بعين حقود، ثـم ابتعـدت مسـرعة تتعثر بعبراتها، وما يفتأ صـراخ ملائكي في إثارة أكثر لعاب متوحش.

أوعزت السـماء إلى غيومها بالتوقف، بعد أن تأكدت من غرق معظم البيوت المتعبة، في تحالف وطيد العلاقة مع فقر مزمن.

تنـاور خيوط الشـمس صباحاً تأخر الوصـول، وتتخبط هناء في الأزقة والطرق تحتمي بقطرات المطر من عيون فضولية تحمل سؤال السؤال، لكن شكراً للعباءة التي تواري الكثير عنها، فتلفعت بها سائرة على غير هدى أو اتجاه.

تركتهـا تتلـوى علـى فـراش الـولادة، تعانـي تقلصـات الرحـم وانقباض القلب المشـحون بالألم، بالسـخط، بضعف الحيلة، أخذت المولـود بدمـه قبـل أن تـراه أمـه، أتراها فعلت خيراً؟ حين لـم تسـمح لذاكرتهـا أن تلتقـط ولـو صـورة واحـدة لـه، حين منعـت أنف أمه أن يحتفـظ بعبـق مـن رائحتـه في سـجلها، لكن ماذا عـن صرخاته البكر الأولـى؟ الزمـن... الزمـن هـو الكفيل بحل العقد أو تناسـيها في قعر سنواته.

يبـدو أن قدميهـا قـد وطأتا أزقة لـم تعهدها من قبل حتى فقدت الاتجـاه، فبيـوت الفقراء متشـابهة في ثيابها الباليـة وزينتها الرخيصة، كذلـك فـي وجـوه سـاكنيها، وعيونهـم التي لا تخفي ذلك الانكسـار الفطري المتوارث مهما حاولت أو دارت.

أين أنا؟! في أي حي؟ وأين الشـارع الرئيسـي؟! ولكن لا ضير

أن أفقد الاتجاه بعد كل هذه السنوات الطويلة من الإمساك بتلابيب الشارع العام وركوب الباصات جيئة وذهاباً من المستشفى وإليه.

لا تزال هدى صغيرة، أمامها سنوات وطريق حافل بالحمل والإنجاب، هو أكثر ما يجيده الفقراء في هذه الحياة، يتمسكون بقوة بالكلمة الثانية من الآية الكريمة ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**...﴾ فتراهم يبالغون كثيراً في التزيين. غداً ستنسى، حين يحيط بها أفراخها كدجاجة. كلنا سننسى... كلنا يجب أن ننسى، ننسى لنعيش، والحمد لله إذ لم ينسَ أن يهب الفقراء نعمة النسيان كما نعمة الغنى والمال. نعم جميعنا سننسى وَيا دار ما دخلك شر. ربما في القريب سيرسل زوجها إليها وتذهب، إلى بلاد الثلج والبرد، وشعرت بقشعريرة تسري في أطرافها، هي حتما تخاف من تلك البلاد البعيدة، من ثلوجها والضباب، لا أريد الموت إلا هنا، تتكفل جاراتي بتغسيلي والبكاء في جنازتي، لا أريد أن أدفن مع غرباء أحار في فهم لغتهم أو الحديث معهم، نعم الأولى لي أن أموت هنا. إن كانت وفاء تود اللحاق بزوجها فهذا شأنها، لن أسمح لها أن تعيرني أحلامها وتشوش مسار حياتي وركود أيام سنواتي الباقية. لتذهب هي، لكن أنا باقية لن أحتاج إلى أحد مادامت هاتان اليدان قويتين قادرتين على سحب رأس المولود، وحملقت إلى كفيها وأصابعها الطويلة ذات السلاميات البارزة السمراء. تجارتي يداي لا أحتاج إلا لهما، هما رأس مالي، فماذا أخشى وممن أخاف؟!

لن أسمح لها بعد اليوم أن تغريني بشقة نظيفة في حي نظيف لا تنقطع فيه الكهرباء، ومياهه عذبة، أصفى من الماء الذي يأتي به أبو علي في (تنكره) ليبيعه على بيوت الحي. ماء أبو علي صاف كالزلال،

الرجل يخاف الله ولا يغش ماءه.

أختي وفاء حتماً جنت، كيف تريدني أن أذهب معها، تبقى تزنّ ليـل نهـار فـي أذن ابنتـي عن جمال هناك، وراحـة هناك، كأنها وُلدت هناك، لا تنفك من مشاهدة فيديوات عن ألمانيا، وعن مدنها وقراها. أصبحـت تعـرف الكثيـر عن تلك البـلاد البعيدة، ويحها ربما أكثر من أهلهـا. تعرفـت إلـى عملتهـا وقطع نقودها الصغيـرة قبل الكبيرة، كل الخوف إذا ما عزمت أن تشـتغل بائعة متجولة (دلالة) هناك. حفظت عن ظهر قلب تاريخها، هي معجبة بهتلر، وكيف اجتاح أوربا، (صدگ رجـال) شـعب لا يحـب إلا دكتاتـوراً يقمع أحلامـه، هذا إن وجدت بالأصل. عقود من التخلف لا تنجب سـوى شـعوب كل همها لقمة العيش الحاف.

لقد نبهتها ألا تمدح وتمجد هتلر هنالك لو ذهبت، أخبرتها بأنهم قـد طـووا صفحتـه لأجل حياة حـرة كريمة تتوافق مع الإنسـانية التي ينشدها العراقيون من غربتهم واغترابهم في أطراف العالم المتباعدة. لكني أبداً لن أسمح لها أن تغري ابنتيّ بالجنة الموعودة والفكاك من قيد العادات والتقاليد أو ربما حتى الحجاب، فقد سمعت هبة أكثر من مرة وهي تغمغم على الحجاب، متحسرة أن تلف وتغطي أكثر شيء جميلٍ فيها حتى إنها طلبت مني ذات مرة أن أقصه، ما الداعي لشعر طويـل يختبـئ خلـف خرقة قماش كمذنب يتـوارى من ذنبه. حاولت تعقيلها ونهيها عن فكرة تقصيره، بأن مصففة الشـعر سـتحار في يوم زفافها بعمل تسريحة جميلة لها إن هي قصته. وأظنها اقتنعت بكلامي رغم تعابير الشـك التي ارتسـمت على عينيها، وأنا أخبرها بأنهن هنا لا يجدن العمل إلا مع الشعر الطويل، وشعر طويل وجميل كشعرها

سيجعل منها عروساً ولا أجمل.

أواه... يـال المراهقـات!! مفتـاح عنادهـن وسـخطهن هي كلمة واحدة «أنتِ جميلة»، أوووه أظنها صارت كلمتين، في أية حال لهذه الكلمة مفتاح يفك عقدة كل امرأة، ويزرع على فمها ابتسامة مختلفة، تلمع لها عيناها حتى وهي في أحلك ظروفها ألماً، ولطالما سـمعت أمي وهي تهمس في أذن من تعسرت ولادتها، «أنتِ حلوة وتخبلين، بس ساعدي نفسج يا بنيتي».

كلمة لها مفعول السحر حققت معي نتائج مرضية، تعلمتها من أمي التي لا يزال لسانها يقطر شهداً، رغم أني قد سرقت من جرارها الكثيـر الكثيـر، الأمر الـذي عزز من مكانتي بين قلوب الناس فأصبح بيتنا معروفاً في الحي باسـم بيت القابلة هناء، «يمه الناس شـنو تريد منك غير اللسان الحلو والملگى الطيب»، وكان للناس ما سرهم مني رغم...

وأخيراً وبعد نزاع شديد مع اللغة والعلوم العصية على النجاح، وعطلـة صيفيـة تبخرت سـريعاً بين بيتنا وبيـت الجيران، حيث كلفت أمـي جارنـا ريـاض بعـد إلحاح مـن والدته أن يُدرسـني، بمسـاعدته حظيت بالشـهادة المتوسـطة بالكاد بعدما أخفقت في دورها الأول. واسـتنفدت كل الأعـذار لأجـل الذهاب إليهـم، فتمنيت حينها لو أني لم أنجح لربحت سـنة أخرى كاملة في التقرب منه وملاقاته، قبل أن يلتحق بالكلية وأكون نسياً منسياً.

كان يتحاشـى النظر إليّ حين نلتقي أحياناً صدفة عند الباب في طريقنـا للخـروج، أنـا إلى إعدادية التمريض وهو إلى كليته. فتعمدت بعـد ذلـك أن أبـرح الـدار قبلـه أو بعـده بفترة من الوقت ومسـافة من الأسى والارتباك، فوفرت على نفسي واختصرت عليها جروحاً أكبر من عمرها.

لا أنكـر أنـي، وبعـد مـدة ليسـت بالقصيـرة، كنت حيـن ألمحه صدفة ولو عن بعد يظل قلبـي يسـارع الريح، يتراقص في جنون بين الأضلاع، تقرصني بطني، تثقل قدماي ولا تعرفان طريقهما، لازمتني هذه الأعراض وإن خفّتْ أحياناً، عندما أقنع عقلي، أن يمسك لجام قلب يصهل بفقده، ويلتاع.

حيـن نجحـت كافأتـه أمي بهدية قيمة، حـلاوة النجاح، وكافأني

هـو بجـرح غائـر ودرس أضافي، لم يكـن ضمن الاتفاق، إلا إنه تبرع به لي مشكوراً، فأوصدت باب الصف وأيقنت أن الحياة خذ وهات، ولا مجـال للأعمـال الخيريـة، التـي أقوم بها فـي بعض الأحيان على أمل أن تحسب في ميزان حسناتي الخفيف الكفة، أو بانتظار ان يدفع صاحبها الضريبة في وقت لاحق ومناسبة أخرى، فلا خير مطلق ولا عطاء دون مقابل.

التمست أمي من مدير المستشفى أن يوظفني قبل أن أتخرج من الإعدادية، وبحكم ظروفنا القاسية، وبعد أن طوى سجل المفقودين في الحرب اسم والدي، وتوسد أحد ألوف السطور، وعرفاناً منه بما قدمته أمي للعمل من إخلاص ومثابرة وبشاشة وصبر، وافق على تعييني بذريعة نقص الكادر وظروف الحرب وما إلى ذلك من حجج مختلفة ذكرت في ملف تقديمي لطلب التعيين. فلبست الصدرية البيضاء قبل زميلاتي في الإعدادية بسنوات، وتمرن بعضهن على الحياة العملية في المستشفى على يديّ. قرأت في البادئ على وجوههن أسئلة وفي العيون نظرات استغراب ودهشة من تلك التلميذة الرقيقة، التي نزعت عنها الشرنقة ليخرج منها يعسوبٌ لا فراشة. ضحكت ساخرة في سري من تلك النظرات وأنا أقول: في الغد سيمتلئ هذا المكان بيعسوبات مختلفة، وحتى الفراشات منهن سيقايضن أجنحتهن الرقيقة بأجنحة يعسوب... في الغد... في الغد سيزاولن كل أساليب المماطلة والمناورة مع المرض والمرضى.

تداخلت أوقات راحتي فبانت ألوان متشابكة لا يفقه الناظر نحوها شيئاً، أواظب على الدوام في المستشفى، دون أن أفكر ولو للحظة بالتغيب عنها، لئلا أكسر كلمة أمي وأخرق وعدها لمدير المستشفى بأن أكون متفانية أسيرة للعمل مثلها. فكان لها ما أرادت

ودفعت أنا ثمن ذلك الوعد من صحتي ووزني الذي انخفض بشكل ملحوظ بسبب تغير واختلاف مواعيد الأكل عليّ، إذ بت أتناول معظم وجباتـي وأنـا أقـف على قدمـي، فلم تجد البركة مكاناً لتحل فيه، هذا ما كانت أمي ترده على مسامعي حين تلمحني.

رغم التعب وشظف الأحلام والأماني، انتهت سنوات الدراسة الثلاث وتخرجت ممرضة بشـهادة رسـمية، زاد ذلك من مخصصات راتبـي الشـهري، وانتقلـت إلـى أسـلوب العمـل بالمناوبـة النهاريـة والليليـة، فقـل ضغـط التوتـر والقلـق عن أمـي، التي أبدت تحسـرها وندمهـا علـى وضعي في هذا السـلك وهـذه النوعية من العمل، حتى أنهـا عرضـت علـيّ في أكثـر من فرصة بأن أتـرك العمل وأتزوج أول طارق على الباب، كنوع من إراحة الضمير وتخديره. لكن هذا الطلب جاء متأخراً ولن يزيد في الطنبور نغمة، فقد تشربت المهنة وأدمنتها، صارت المستشـفى دار اسـتراحتي ومصدر إلهاء كبير لي يشغلني عن نفسي وأسئلتها المكدرة. فما إن تقترب قدماي من سوق الحي حيث المرأب حتى تسـتيقظ كل الأسـئلة، وعلامات الاسـتفهام والتعجب، مطالبة بإلحاح أن أسد فمها ببعض الأجوبة، فاختلق قصصاً من شدة واقعيتها وصدقها أخالها أنا نفسي حقيقة مع مرور الأيام، لكن الأيام لا تمـر مسـرعة، ولا تريـد أن تحررنـي مـن حب مراهق ظننته سـوف يزول بفعل الصد والإهمال والقسوة، وها هو بين الحين والآخر يتفتق بين حنايا روحي ألماً وحسـرة. فأعيد صقل الأسـئلة نفسـها وتلميع ذات المبررات، لماذا وتتبعها كل أخواتها في التعجب والاستفهام... أتراني غير جميلة؟ أم أنه يفضّل الشـقراء؟ أم أن وظيفتي لا ترضيه؟ لكنه لم يبدِ يوماً استياءه من رغبتي في الالتحاق بإعدادية التمريض،

لـو أخبرنـي حينهـا بذلـك... لو حتى نوه بكلمـة أو بطرف فمه عندما يمطـه اسـتياءً، لكـن ربما هو وضعنا الاجتماعـي لا يروق له ولأهله، إلا أن أمـه صديقـة أمـي وجارتهـا منذ سـنوات، ولا أظنها تخالف أو تعترض على رغبة ولدها إذا ما أراد الاقتران بـي.

تحاصرنـي الأسـئلة فأضطـر أحيانـا كثيـرة إلـى تغييـر الطريـق، والقدوم إلى البيت من طريق خلفي بعيد نزق كمزاجي.

نـال التخـرج بعـدي بعـام مـن كليـة التربيـة قسـم الرياضيـات، وشـاركت أمـي صديقتهـا الفرحة برمي الحلـوى والملبس على رأس المتفوق، الذي كانت وظيفة المعيد بانتظاره.

قاومـت نفسـي وضلالاتهـا، ومـا تحيكه لي مـن حبائل وخطط لأجـل إن أنتهـز فرصـة هـذا الحدث وألتقي به، لعـل المياه تعود إلى مجاريهـا، لكـن وإن عـادت الميـاه، فالمجـاري قـد أكل الصـدأ فيها وشرب. أصبحت عيناه كزجاج معتم لا أستطيع تفسيره، لكني متأكدة مـن تلـك النظـرة الغريبة التـي اعتلت قزحيتها فزادتها قسـوة، وقلبـي حيرة.

لم أكن أريد أسبابا، كان يقنعني سبب واحد، يبرر ابتعاده وتراجع موسم الحب الذي لمحته ينمو ويكبر في عينيه مع كل درس.

عذبني هجره، وكأني مرض شفي منه أو عادة تدخين أقلع عنها إلى غير رجعة، رغم أن المدخنين يحنثون بوعودهم.

لـم يقـل صراحـة أنـه معجب بـي أو يحبني، لكـن عينيه لمحتا بالكثير، أكثر مما قد يبوح به لسـانه. حتماً لسـت واهمة ولا أتخيل، بالطبـع كنـت صغيـرة، لكنـي أسـتطيع أن أميـز تلـك المشـاعر التـي أولاهـا لـي... كانـت شـفقة يا عبيطة... شـفقة لا أكثـر، البنت اليتيمة

وواجبات الجوار والصداقة بين أميكما، أنت من فسر ذلك الاهتمام بطريقة خاطئة. اندفاعات وحرارة مشـاعر مراهقة ظللت لك الصورة الحقيقيـة، خدعتـك بأوهـام وأطياف حب، وحبيب لم يعتبرك سـوى أخته الصغيرة.

مـراراً وتكـراراً خضـت هـذا الجدال مع عقلـي دون أن يضمن أحدنا الفوز، الفوز الذي تناوبناه معاً، حتى أعلنت انسـحابـي... هو يـزداد ابتعـادا فمـا الداعي لهذه المهاترة اليومية، الرجوع عطشـى من الشط. وتقبلت النتيجة معلقة إياها على جدران قلبـي كشهادة تخرج مـن مدرسـة الحـب، بعـد أن حصلـت على درجات عاليـة في الألم، وحققت رقماً ممتازاً في القسوة والإهمال، وآخر في الحيرة والشك. فعلا نلت نتائج جيدة، أعلى بكثير من نتيجة الثالث متوسط.

أرجـأت فكـرة اللقاء به وخاطـر المباركة والتهنئة بعد أن ذرفت عينـاي الدمـوع لأجـل إقناع نفس لا تـزال تأمل... تتخبط أقدامها في أرض الأحلام، أملاً بحلم انطفأت شمعته منذ سنوات.

آه يا هنـاء متـى؟... متـى تتعلميـن الـدرس!؟ متـى تنزعينـه من رأسك؟

ابتلـت ثيابــي، عباءتـي تقطر دموعاً كالحة، نسـائم الهواء باردة تخرق جلدي إلى عظامي. تغرق قدماي في مياه أزقة غريبة لم أعهدها من قبل، وأغرق أنا في قصص تُروى من ماء القلب فلا تموت.

تتلاصـق جـدران بيـوت صغيـرة منخفضـة احتمـاء مـن المطر، فتتكدس الهموم والتساؤلات في صدري. أين أنا الآن؟!

تتلفت حول نفسها، تُضيق فتحة عينيها فاحصة محاولة استكشاف المكان، تبحث عن إشـارة أو لافتة تدلها على اسـم المنطقة أو حتى على الشـارع الرئيسـي، بدلاً عن دوامة الأزقة الضيقة هذه التي ينتهي بعضها بباب ضيق غار ربعه تحت ماء المطر.

اكتفيت بسـماع أصوات الزغاريد والهلاهل قادمة نحو بيتنا من الجيران، وأنا أمسـك دمعة تحاول التسـلل. استقبلتني سعفتا النخيل، خضـراوان غضّتـان مثبتتان علـى بابهم معقودتا الطرفين إحداهما إلى الأخرى، إشارة إلى عقد لن ينفصم وشراكة دائمة.

تغيبت عن البيت يومين متتاليين في المستشفى، وبحجة الخفارة ونقص الكادر مقابل ضغط العمل اسـتطعت تحاشـي المشـاركة في حفـل زفـاف ريـاض. بعـد أن قضيـت تلـك الليلة عازلة نفسـي، أنوء بحزنـي فـي إحـدى غـرف المستشـفى، أذرف دموعـاً لـم أعتقد أنها سـتتوقف. وفِـي الصبـاح فقت على عينين متورمتيـن وصداع أفقدني

صوابـــي وتجلـدي، فبكيت عدة مـرات دون إرادة مني، مثيرة فضول وتساؤل بعض الممرضات اللواتي عللن ذلك بضغط العمل والسهر ليلاً (هذه المهنة تأكل من صحتنا وتشرب نخبها من شبابنا). وبدوري وافقتهـن الـرأي والعـذر، لكني لم أضيـع فرصة البقاء وحيدة دون أن تشاركني دموعي التي نزلت بغزارة في كل مرة حتى باتت عيناي قطعة دم أثارت قلق الدكتور حيدر، وبعد فحصهما أمرني مشدداً بالذهاب إلى البيت وأخذ قسطٍ من النوم والراحة.

قهقهت روحي سـاخرة... راحة!!... أية راحة يقصد؟ ومن أين تأتـي الراحـة، وآثـار دم مسـفوكة عنـد عتبة بـاب بيتهم طلبـاً للبركة، واسـتقبالا لعـروس بذبـح خـروف عنـد قدميها لم يبق منـه إلا جلده متروكاً على الجدار تأخذ منه الشمس والذباب حصتها.

– أهـلاً هنـاء... تأخـرت هذه المرة، فاتـك العرس يا ابنتي.. الكل سأل عنك وافتقدكِ. كان العرس جميلاً، لكن فرحتي بقيت ناقصة بسبب غيابكِ عزيزتي، كذلك أم رياض سألت عنك أكثر من مرة مفتقدة وجودك هي أيضاً.

– العمل يا أمي..

ولم تتركها تكمل عبارتها حتى ردت أم هناء مستاءة متجهمة:

– العمـل... العمـل، أشـعر بالإحباط... أنـا من ورطك بهذا العمل بنيتي.

وحين رفعت هناء رأسها اندهشت أمها مذعورة من منظر عينيها الذي خلصها من الاسـتماع إلى حديث أمها المسترسـل عن العرس وجمال العروسين اللائقين ببعض، حيث انشغلت بالسؤال عن سبب هـذا التـورم والاحمـرار ولم تقتنع بأنه من فرط السـهر والتعب. لكن

هناء غضت بصرها عن الشكوك والريبة التي اصطبغت على وجه أمها فـي لوحـة تعبيرية عنوانها الأمومة، شـاركتهما تجاعيد وخطوط زمن لم يكن رفيقاً بها. ودلفتْ إلى غرفتها تلتجئ بها من إلحاح أمها على ضرورة تناول بعض الطعام قبل أن تخلد إلى النوم.

ومـرة أخـرى تنقذهـا عيناهـا المتورمتـان من الذهـاب إلى بيت الجيـران مـع أمهـا لأجل المباركـة والتهنئة بزواج سـعيد مديد (منك المال ومنها العيال).

مرت الأيام متباطئة، تجرجر نفسـها من وحل الذكريات سـاعة لتعـاود التمـرغ بـه سـاعات أخريـات، حتى كدت لا أميـز بعضها عن بعـض. روتيـن ثابـت من البيت إلى المستشـفى ومن المستشـفى إلى البيت عبر شـوارع تعثرت عليها دواليب السـيارات من كثرة المطبات والحفر، لأكمل بقية الطريق مشياً بين أزقة حفظت وجوهها عن ظهر قلب، تشبعت رئتاي بالروائح المنبعثة من بيوتها في اتفاق شبه جماعي على نوع الطعام، فيوم الأربعاء حصته السـمك دوماً، السـبت رائحة الثـوم تسـتقبلني مـن أول الشـارع وهي تزكي مرقة الباميـا، الفاصوليا مرتيـن فـي الأسـبوع أو تصـل إلـى ثـلاث، كالزوجـة الجديـدة تظفر بالحصة الأوفر، لما لها من قبول خاص وشـعبية مميزة بين الأطفال والكبـار علـى السـواء. يـوم الجمعـة لا بـد أن تصل إلـى أنفي رائحة الدجاج وهو يتربع على صحون الرز الأصفر في احتفالية يوم العطلة ونهاية أسبوع تململ من مرقات تختلف في جودة طبخها من بيت إلى آخر، فكان منظر آنيات المرق المتبادلة طبيعياً للغاية. لكن تبقى رائحة خبز التنور صباحاً مع الشاي هي وقود تلك الشوارع ونبض قلبها.

وجـاءت الصدفـة بعـد عدة شـهور بـلا رحمة تهز صبـراً وليداً،

وبقايا جلَد ممزوج ببعض من النسـيان أو بالأصح التناسـي، أتجمل به كل صباح، فما عاد عذر السهر وضغط العمل مقنعاً لعيون محمرة منتفخـة علـى الـدوام. صـرت وجهاً لوجـه مع العروسـين دون أدنى فرصة للانسحاب أو التراجع، فألقيت التحية مع ابتسامة توسلت الله أن يرسـم ظلالها على وجهي الذي امتقع لونه، وتسـارعت ضربات قلبـي تصاعداً وأنا أتبادل معهما الأماني الخالصة بحياة زاهرة. فكنت الشـخص الأول الذي تزف إليه العروس نبأ أول برعم قد تشـكل في رحمها، طالبة مني أن أحقنها مجموعة الإبر المقوية كل مساء.

ترددت على بيتنا عند المساء على مدى أسبوعين، مدة العلاج. كانـت قليلـة التجاوب مع عبـارات أمي المرحبة ومجاملاتها الوافرة، متحفظة لا تستحضر كلماتها بعفوية (تتكلم بالدين) ولا تمتلك حس الفكاهة القادر على مجاراة نكات والدتي وتلميحاتها المخجلة. وعدا ذلك كانت الكنة التي يفخر بها أهل العريس، ولديها من المواصفات الجمالية والأخلاقية الكثير مما يجعل أم رياض تتوجه إلى الله شاكرة ممتنـة، وتصبـغ علـى العـروس عشـرات الصفات الحميـدة بين أهل المنطقـة، حتـى خالهـا بعضهم ملاكاً، وتندّر آخـرون على أم رياض، ومـدى مبالغتهـا في كيل عبارات المديـح والثناء لكنتها التي توظفت هـي الأخـرى معيـدة فـي الكلية مع رياض. إذ لا تنسـى أم رياض أن تودعهما كل صباح بدلو من الماء يجري خلفهما منحدراً نحو الشارع، مع آيات للحفظ وطرد العين والحسـد. فاتهمت بلوثة جنون أفقدتها صوابهـا، ناصحيـن إياهـا بالتريث في الحكم وعدم إسـداء ثناء مبالغ فيه قبل أن تعرف جوهر كنتها، متشـوقين أن يسـمعوا عراكاً أو تصل إلى آذانهم كلمات لوم واستياء، ولا أظنهم قد نالوا مرادهم بعد طول

ترقب. فتحول الترقب إلى حسد لحظ أم رياض بتلك الكنة ولا سيما بعد أن أنجبت لها حفيدين توأم، وُلدا على يديّ قبيل أذان الفجر.

أطلقت جدتهما عليهما اسم سعيد ومسعود، بحجم السعادة التي اعترت قلبها، والتي فاضت بها عليّ جانباً، حين جلبت لي خاتماً ذهبياً (حرك أشجان القلب حين تمنيته وهلة خاتم خطوبتي لابنها رياض) هدية تثميناً لجهودي وصبري الطويل على آلام طلق هند المتقطعة والمتباعدة، التي أثارت مخاوف طبيب الخفر، طالباً مني تهيئتها إلى ولادة قيصرية، فنصحته بالتريث والصبر على أم بكر، مطمئنة إياه بمراقبتي لوضعها عن كثب وإخباره بالمستجدات. وكانت ثقته بحسن تدبيري وخبرتي في محلها، عندما ولدت هند توأمها بتمام صحتهما.

ليته ولد ميتاً، هو كذلك بتمام عافيته، قدمته للقطط والكلاب وليمة. كيف طوعت لك نفسك؟ وكيف مات ضميرك يا هناء؟ وفِي أي قمامة دفنته؟ تذكرت... نعم تذكرت، كانت البداية صعبة، أما الآن فبعد كل هذه السنوات من تحجر القلب وموت الضمير، أصبحت الأمور سهلة... فما بالك عزيزتي؟ لِمَ كل هذا الوجوم؟ هي ليست المرة الأولى، أحقاً نسيتِ ذلك المولود الذي تركته أمه عندك بعد أن أغدقت عليك بالعطاء مقابل أن تواري جريمة أمومة خارج أرض الزوجية نبتت. فكان مكب القمامة مسرحاً لجريمة أخرى... كنت مضطرة... كانت تلك المرة الوحيدة.. لا تذكريني أرجوك، لا تذكريني (وتقهقرت دفاعاتها منخرطة بموجة بكاء وضحك هستيري، تراجعت خطواتها، تفحصت ساعة يدها التي نسيتها في البيت، كم مضى من الوقت وهي تلف في طرق فرعية تتناسل أزقة ضيقة متعرجة

على بيوت صغيرة تلهث بوجه حبات المطر؟ فتخر سقوفها عرقاً على ساكنيها).

لقـد أنقذتنـا تلك النقود من سـقوط سـقف البيـت، الذي تطلب رفعه تماماً بعد أن تهدل وكشـفَ عن قطع حديد صدئة طالها الزمن بأنيابـه. لـو لـم أفعل ذلك لكان الشـارع مصيرنا، نتقاسـمه مع القطط والـكلاب و... لا تكملـي، هنـاك دوماً مـرة أولى أو بالأحرى واحدة لقطع رأس الضمير، لفض عذريته وما يتلو ذلك من جز أو نحر لرأس ميت لا قيمة له.

اصطبغت يداك بلون دمائهم البريئة، حيث منجلك يطيح ببراعم زهور في أيامها الأولى، من منحك حق الإبادة؟ حق إصدار تصاريح لقطـع رحلـة حيـاة بدأت تواً، أزحت عن كاهـل عزرائيل مهمة يترفع عنها وجدانه في أحيان كثيرة.

اصمتـي هنـاء أرجوك، ما من عذر لك، تسـاقطت أعذارك تباعاً مثل ورق الخريف، وها قد أتى اليوم لتحملي بضعة منك إلى القمامة ذاتهـا طلبـاً بثـأر ذاك الرضيـع. الدنيـا تأخذ بالشـمال أضعاف ما تهبه باليمين والزمن يدور... والزمن يدور كالدولاب.

آن الأوان لتسـددي بعـض ديونـك، لتدفعـي ثمـن دلال، وتدني رغبات ابن نزلت عندها في كل مرة حتى طالت ما ليس له. أحصدي ما زرعته يا هناء دون أي عتب أو لوم، واتركي شماعة الظروف التي اعتـدت تعليـق كل ذنوبـك عليها، مخففة تأنيب ضميرك، هذا إن بقى منه شيء.

تعلـق بـي التـوأم وتورطـت بحبهمـا مثلمـا تورطـت قبل ذلك بحب والدهما. أهو تعويض عن حياة وأمومة أزهرت في روحي مع

أبناء رياض؟ لم أفكر حينها في سبب تعلقي بهما تاركة لمشاعري الانجراف، حتى بت لا أطيق اليوم أن ينتهي دون أن أطل عليهما طابعة القبل على كل مكان تصل إليه شفتي منهما.

اعتادا على مناداتي بعمة هناء، وآه كم سخر القدر مني، حين ارتضيت تلك المناداة وذاك النعت بدلاً عن لفظة أماه، تلك اللفظة التي تزيد المحيط دفئاً، لكني اقتنعت بنزر من شيء عوضاً عن شيء، فكرست حبي لهما وأنا أرى الشبه بينهما وأبيهما يكبر، وليت حبي له يصغر.

رياض الذي أصبحت لا أراه إلا ما ندر، وحين تجمعني الصدفة به على الباب أو في الشارع يخذلنا معاً بنظراته المتحاشية وبكلمات مقتضبة لا تتجاوز الثلاث، تنوء بحملها شفتاه فيلقيها في وجهي دون أن يرفع رأسه ليتخطاني مسرعاً قبل أن ألتقط نفساً وأرد عليه بجواب يتهاوى مني متلاشياً خجولاً. إلا نبض قلبي الذي يبقى متصاعداً، يخونني في كل مرة حين يراه، متنصلاً عن كل وعوده، ناسياً ليالي، طويلة ذرفتها العين دموعاً، ومخلفاً فيّ غصة لا تزول مرارتها إلا بعد أيام ولا يحلي طعمها إلا سعيد ومسعود، اللذان يترقبان عودتي عند عتبة باب البيت، وعلى جرح أبيهما بلسماً برفق يضعان.

خالني كل من رآنا معاً أني عمتهما، لا يعرفون أن صلات الدم واهية إذا ما قورنت بصلات القلب.

لن أنسى منظر هند في تلك الصبيحة، وجهها الذي بات بلا ملامح، عيناها المرتعبتان، صوتها المتهدج المكبوت وهي توصيني هامسة (لا تفرطي بالأمانة يا هناء... لا تفرطي بالأمانة وحياة رياض الغالية عندك، لا تفرطي بهما) قبل أن يجرها واحد من قوات حفظ

الأمن، ليقتادها بملابسـها البيتية هي وبقية عائلة أم رياض إلى مركبة مصفحة خاصة بهم.

كنت أسـتعد للذهاب إلى عملي حين اسـترق سـمعي طرقاً قوياً على باب بيت أم رياض وجلبة في الخارج، فدنوت من الباب أفتحه، كانوا رجالاً ملثمين، بنادقهم مشـهورة بوجه البيت. اقتحموه راكلين البـاب بأقدامهـم وكعـوب بنادقهـم، منتهكيـن فرصـة السـماح لأحد بالمبادرة لفتحه.

طوقوا البيت وكذلك البيوت المجاورة، تجرأت وسألت أحدهم عـن الأمـر، فوجـه بندقيتـه في وجهـي وزجرني شـاتماً. ارتبكت من غلظته وخشونة رده لكن قدميَّ تسمرتا في مكانهما، وصل قلبـي إلى بلعومي حتى كدت ألفظه، لم أشـعر برعب كهذا من قبل. اصطكت ركبتـاي، سـرى تيار وحشـي في بدني ارتعشـت منـه أوصالي، دبيب خدار في مؤخرة رأسي، وحرارة تتصاعد مكثفة عرقاً غزيراً يغمرني، وأنا ألمحهم يجرون العائلة واحداً تلو الآخر حتى دون أن يسـمحوا للنسوة ارتداء ما يسترن به رؤوسهن، فخرجن ذليلات مهانات يسحبن أطراف ملابسهن على أجساد مرتعشة مصدومة.

لم يسـتغرق الأمر سـوى بضع دقائق ليقلهم موكب السـيارات المصفحـة إلـى وجهـة ارتعبـت أفواهنـا مـن نطقها، فتسـمر الجيران شـاحبـي الوجوه عند أبواب بيوتهم، تعقد الدهشـة لسـانهم، بعضهم فرك عينيه مذهولاً ظناً منه أنه يزيح بقايا حلم لا يزال عالقاً على عينيه.

أول الأمـر لـم يعـرف أحدٌ منا السـبب أو التهمة، فتفرق الجمع من على الأبواب صافقين الراح بالراح، مذعورين مما قد يخبئه قادم الأيام، مستأنفين أعمالهم ولربما خيباتهم المتتالية في حياة باع بعض

منهم ملاعق وسكاكين مطبخه ليوفر بها ثمن رغيف يومين أو ثلاث مغمساً مع الشاي في وجبة قد لا تتوفر لديه في أيام أخر.

بعـد سـاعات تناقلت الوجوه المكفهـرة الأخبار، ووصلت أنباء عـن اقتيـاد الكثيريـن منهـم نحـو المجهول، بعـد أن هاجم بعض من ذويهـم مراكـز الشـرطة ومقرات الحـزب، منكلين ببعض رجالاته في انتفاضة ثأر وحركة تمردية على أوضاع تردت، ومستقبل آخره غيوم سـوداء اسـتطاعوا استشـفافها، لكنهم لم يسـتطيعوا أن يستقرئوا جيداً خارطـة مسـتقبلهم، التـي توقـف مسـار طريقهـا بنقاط حمـر مبعثرة، وصـدى أصـوات مسـتنجدة مسـتغيثة، بعد أن هدمـت بعض من هذه البيوت والجوامع، وصارت أطلال ذكرى.

ذكرى بيت أم رياض... رياض الذي خلف وراءه حسرة أجترها مـن حيـن لآخـر حتى بعد هذا الوقـت الطويل لا تزال صورته تلاحق أحلامي، وتطارد صحو نهاراتي. استوطن فيّ بعد رحيله أكثر من ذي قبل، صار كمرض مزمن يلازمني وجعه، ولا أبحث له عن علاج أو شفاء رغم أني قد حاولت مرة... حاولت أن أتعافى، أن أداوي القلب وأجبره بحب آخر، حين شعرت بتودد الدكتور حيدر لي وتقربه مني يومـاً إثـر يـوم. جعل جدول خفاراته يطابـق جدول خفاراتي، لم أنتبه للأمر وحتى بعد أن نبّهتني بعض الزميلات إلى ذلك، وإلى عينيه اللتين تلمعان فرحاً بمقدمي، ومتابعته المستمرة لي بين ردهات المستشفى وافتعـال صـدف وملابسـات لا حصر لها، لكني لـم آبه لملاحظاتهن وحسـبت كل ما قيل مجرد ثرثرة نسـاء ينسـجن قصصاً يطوين بها ليل العمل الطويل، ووصلة ترفيهية تخفف من إرهاقه.

لـم أنتبـه لأي إعجـاب أو شـعور قـد يصـدر مـن أي رجل آخر

سوى رياض، وحتى بعد زواجه لم أستطع الفكاك من قبضة ذاك التعلق المرضي، وكل رجل تقدم لي خاض ودون إرادة مني تنافساً مع رياض، ووقع في دائرة مقارنات معه يتسع قطرها فلا يعود لهم من مكان مع خصائل رياض ومميزاته التي لا يرى كبر حجمها إلا أنا بالطبع.

سيطرت هذه المشاعر عليّ رغم أني أحاول إنكارها وترويضها بحجة أن كل أولئك غير مناسبين، لأدخل في كل مرة في مشادة مع أمي التي تصر على تزويجي، لا سيما بعد أن فرغت من تزويج أختي وخلا ذهنها إلا من هناء، فكان كل همها أن تراني مزدانة بفستان أبيض طويل، وظل رجل أتحامى خلفه إذا ما غاب ظلها.

تلاشت شكوكي وازدادت ثرثرتهن، حين لمحنه يتحدث معي على انفراد، وبشكل جدي عن رغبته الصادقة في التقدم لخطبتي بعد أن يصبح قادراً على الزواج، وفِي جيبه ما يكفي لعيش كريم يغمرني به، وسرح بعيداً يحدثني عن بيت أحلامه، عن عدد غرفه ومساحة حديقته التي ستكون ملجئي بعد الزواج، أعتني بأزهارها بدلاً من المرضى. إذ طلب جاداً أن أترك العمل وأتفرغ إلى متطلبات الزواج والبيت.

لم أتحمس للفكرة كأية فتاة مقبلة على الارتباط برجل فيه من المواصفات ما يشد ويجذب. لست أنكر أني قد ألفتها بعد مد وجزر يرتفع ويهبط بروحي الهائجة، في محاولة صادقة وواعية لأجل أن أحبه وأسلى عن ذاك الحب الذي جرفني بعيداً عن موانئي والحصون. فبدأت أعتاد على وجود الدكتور حيدر وأفتقد غيابه، وأحاول جاهدة التركيز عليه دون أن أسمح لعقلي في الدخول إلى متاهة المقارنة وما

تجره لقلبـي من ألم وتأنيب ضمير. وددت في مرات عديدة أن أنساه، إلا أني حين أفك القيود عن نفسي بعض الوقت أجدها تردد حروف اسـمه رغماً عنا نحن الاثنتين، لكني لم أفقد الأمل بالشـفاء على يد الطبيب حيدر، الذي بذل كل جهده لأجل إسـعادي وإدخال السـرور إلى قلبـي. كان ظريفاً حسن المعشر، لا يُحمل ضميره أكثر من طاقته، يحذف منه باستمرار كل ما ليس باستطاعته أن يحله أو يضع حداً له. هكـذا وطـد حياتـه ونجح في خياراته معتمداً على مسـافة أمان كبيرة تبعده عن المشـاكل، لا سـيما بعد وفاة أمه في مقتبل عمرها، مودعة خمسـة أطفال في رقبة أب يكافح كل نهار لأجل قوت أولاده، تعينه فـي ذلـك والدتـه التـي لم يك من بد أمامها، فتعكـزت عليه من جور الزمن، لتحظى بنهاية خدمة مريحة في كنف ابنها وأسرته. لكن للزمن قراراته التي لا تخلو من جور عادة، إذ رفض طلب تقاعدها موكلاً لها من جديد تربية خمسـة أولاد أكبرهم لم يتجاوز الثانية عشـرة. وكان دكتـور حيـدر الابن الأوسـط الهـادئ المطيع، الـذي تعلم أن يرضى بالأمور على علاتها، وأن لا يسـبح إلا مع التيار متحاشـياً شـزرة من والده أو صيحة من جدته المتعبة، فعاش مسالماً بين أخوته متنازلاً عن حقه أن تطلب الأمر ذلك لأجل الحفاظ على سـكينة وهدوء البيت، الذي تتصاعد إلى سقفه المعضلات وتجتاز النوافذ صرخات العراك، حالما يلج أبوهم الدار بقدمه المشـبعة برائحة البهارات والأعشـاب وتشاطرها يداه وثيابه. وانجر في سلوكه هذا حتى بعد أن صار طبيباً، متحاشياً أو حالاً لأي مشكلة قد تواجهه (بالتي هي أحسن).

عانى حيدر الكثير من أجل أن يصبح الدكتور حيدر، كان ينتظر كل يوم في مسلسل مرهق طويل أن يخلد الجميع للنوم لتخف وتيرة

الصخب المعتاد ويلتقط ساعات كي يدرس بهدوء، متواطئاً مع الليل ونجماته التي ترقبه حتى تباشير الصبح الأولى، ململماً كتبه أو غافياً عليها.

أشفقت على طفولته، الروابط المرة، تقارب وقائع اليتم بيننا، كل ذَا جعلتني أفكر به جادة كزوج يستطيع توفير مناخ هادئ، وحياة أسرية مستقرة، خلاف ما هو شائع عن الأطباء وحياتهم الحافلة بالمغامرات والتجاذبات النسائية العديدة، والليالي التي لا تصطبغ بغير اللون الأحمر.

كان عند حسن ظني حين استنجدت به طالبة مساعدته في إيواء التوأم اللذين كانا ليلتها نائمين عندي، بعد أن انتهينا من مذاكرة امتحان التاريخ في وقت متأخر نوعاً ما، فالتمست بقاءهما من هند التي كانت مزكومة الأنف تعاني من رشح سمح لها أن تحبذ الفكرة، دون أي تردد أو غيرة ألمحها أحياناً تطرأ على ملامحها، وهي تشاهد مدى تعلق الولدين بعمتهما هناء، التي يستقبلانها بالعناق، والفرح يلمع في عيونهما البريئة.

ارتجفت رعباً حد الموت على مصير التوأم، خوف من أن يكتشف أحدٌ بقاءهما لدي، فيطير الخبر على بساط ريح نحو أسماعهم المتوثبة لكل وشاية.

كان مكوثهما معنا فيه خطر كبير عليهما، فخرجت بهما تحت جنح الليل، أخبئهما تحت عباءتي إلى سيارة التاكسي التي أقلتنا إلى أهل الدكتور حيدر في الناصرية، وهنالك فوجئت بحفاوة الاستقبال واللهفة في مساعدتنا على الوصول لأهل هند، أولئك الذين يقطنون في مدينة العمارة... القلعة ويالبعد (الجلعة).

أودعتهما مع أخوالهما وقبلهم قلبي، مع أطفال يزدحم البيت بهم، لكن ليس باليد حيلة، فهذا المكان مناسب بعيد عن الأنظار وعن ذاكرة الناس وأسئلتها الفضولية. ومن حينها عاش قلبي وأختبر نوعاً آخر من الشتات والفراق، نوعاً مختلفاً من الألم، الشوق والغربة، فتبعثرت أيامي بين العمل في المستشفى وبين إجازات أقتطعها آخر كل شهر لأروي بها ظمأي إلى صغيريّ، وأدخر منهما الكثير من القبل والعناقات ذخيرة ورصيداً للشهر القادم، الذي أحصي أيامه الفارغة قبل أن تبدأ، بعد أن ضاق الحي وأزقته عليّ.

خنقني غياب رياض وصدى صوته الهادر يطرق سمعي منادياً على ولديه حينما يطيلان البقاء خارجاً، وأطلال بيت صار مشجباً للذكريات الحزينة وتحول مع الوقت إلى مكب نفايات، ومأوى للكلاب والقطط بعد أن دُك على مرأى من عيون الحي ليكون عبرة للبيوت الأخرى في حال إن فكرت أو جال في خاطرها إثارة حفيظة الأمن.

كرهت المكان، تعثرت في أزقته الملتوية على نفسها وأنا مشتتة الفكر أتساءل ترى هل مر رياض من هنا؟ هل اختبرت قدماه ذلك المطب؟ هل قرأ تلك اللافتة (شقة للإيجار)؟!

كان ينوي الاستقلال في بيت منفرد بعد أن ضاق عليهم البيت واتسعت الثرثرة والمشاكل مع كنتين تقطنان المكان ذاته، لكن أم رياض كانت متحفظة على هذه الفكرة، وهند وحدها من تحمل عتب ولوم أم رياض على تلك الرغبة المدعومة من أطراف خارجية، كل همها تفريق وتشتيت شمل بيت أم رياض بحسب ظنها (تماماً كما ظنت الحكومة بهم).

تضج الأسئلة في رأسي ويتفاقم جنونها بازدياد مطرد نزق يشوش ما تبقى من عقلي، فيطال السؤال كل شاردة وواردة... أتراه؟ ماذا يكون رأيه؟ وما عساه يقول؟... وهل ألقى التحية على أولئك الرجال العاطلين عن العمل، المتوسدين دكة ضجت من أوزانهم وهم متسمرون عند قارعة الطريق كنقطة تفتيش (سيطرة) يحكم طباعهم، الفضول وليد الفراغ، ورتابة الحياة وشظفها الذي لا يحول بينهم وبين متابعة مرور النسوة من أمامهم في تفحصٍ دقيقٍ فتتعثر إحدانا بطرف ثيابها الطويلة التي لا تظهر أو بالكاد تكشف عن أقدام تشققت بعض من كعوبها، وأيدٍ سمراء ناشفة تلاشت أنوثتها مع تمارين العجن والخبز يومياً، ودعك ثياب العائلة في (طشت) الفافون الكالح اللون. موفرين بذلك ثمن الغسالة هذا إن توفر أصلاً في شراء قوت لأفواه فاغرة تكتفي بوجبة أو وجبتين.. دون ثالثة في أفضل الظروف.

أتراك كنت تشاركهم الجلوس عند تقاعدك؟! (أظن أن الجنون قد بدأ ينثر بذوره) قاتلاً الوقت بمخاضات سياسية لا تنجب إلا الحسرة واللوعة على حال أمسه أفضل من حاضره وغده على كف عفريت يحكمه مزاج وتقلبات طارئة لرجل واحد، طموحاته أكبر من أن تسعها خريطة أو يقبلها حارس العالم المطلع على مقدرات كل بلد والراسم لها خارطة الطريق.

تغير رياض في السنوات الأخيرة، اعتل مزاجه وجيبه كثيراً كحال معظم العراقيين مع سنوات قحط وجوع تزداد سوءًا سنة إثر أخرى، ولا مناص من الولوج في ممر خانق طويل لا تبدو له نهاية سوى العتمة.

أطال ذقنه رغم أن رئيس قسم كليته قد حذره من مغبة ذلك، تقوقع على نفسه بعد سيل من الشجارات مع زملائه، والتصريحات الموغلة في السياسة. حذره بعضهم من عواقب الإفصاح عن هكذا مواقف ومشاعر معادية واكتفى الآخرون بالابتعاد.

كان ملتزماً ذا مبادى هو وإخوته، لكن أبداً لم نتوقع انتماءهم إلى تيار ديني أو أي شيء من هذا القبيل، فصدم الكثير من الجيران حين علموا بمشاركة رياض أو أحد أخوته في الهجوم على أحد مقرات الحزب وقتل واحدٍ من أعضائه الكبار.

لاكت الألسن سيرهم كثيراً، ونسجت أبلغ الإشاعات والقصص حتى قيل أنهم يتعاونون مع مخابرات إحدى الدول المجاورة، وأن قوات الأمن والشرطة قد عثرت في دارهم على مخزن خفي بحجم غرفة عامراً بالذخيرة والسلاح تكفي لحرب، وقصصاً كثيرة تتشابه في مضامينها وتختلف على لسان مؤلفها، فتبلبلت الأفكار وتشتت الرأي في تصديق كل ما سمعناه، لكن تبقى حقيقة واحدة هي أن رياض هو

رياض، رغم أنه لم يزرع في قلبـي إلا الشوك ولم أنل من زهر رياضه وأريجها إلا اسمه، الذي ظل محفوراً على جنبات روحي بأحرف من نـار لا يهـدأ سـعيرها، حتـى بعد أن بدأت التعـود على وجود الطبيب حيـدر فـي حياتـي وعلى اهتمامه وحبه لي، الذي كنت سـأقبل بعُشـر منه راضية مرضية لو كان صادراً من رياض. لكن آه، ما نفع الحسرة وسهم حبه قد أصابني بمقتل.

كان أسـير كلمته، تقدم إلى أمي طالباً يدي، التي تكللت بخاتم ذهبـي جميل في نهاية السنة كما وعدني. حلمت بالراحة التي سأنعم بهـا بعـد أن طـال قطافها، مثلما ألفت يدي لمعان ذلك الخاتم، خاتم أثـار حسـد وغيـرة كثير مـن الزميلات، حتى بعـض الطبيبات لم آمن انتقاداتهن اللاذعة، واتهامات بليغة طالت شـرفي وكرامتي معاً. لكن المحايـدات منهـن توقعـن أن للسـحر أثراً، وما ذهابـــي المتكرر إلى العمارة إلا لمتابعة السحر الذي تصنعه لي إحداهن. لم تتورع بعض الزميلات عن أن تستفسـر مني هامسـة عن اسـم ومكان الساحرة التي جلبت لي الدكتور على طبق من فضة.

ذلك الطبق وبفعل حسدهن، الذي بان مفعوله أخيراً تحول إلى (فافـون) وامتـدت الخطوبة سـنة أخـرى، حين طرأ على بال الخطيب الهجرة والسـفر خارج البلاد الذي ضاق باهله فقراً وحرماناً، فركبت الكثير من الأيادي الشـابة النادرة أمواج الهجرة إلى ليبيا واليمن التي فتحـت البـاب على مصراعيه لاحتـواء طموحاتهم المادية، رغم قرار منع السفر بحقهم.

وكان أن وسـوس الشـيطان فـي عقـل الدكتور حيـدر فهرب في ليلـة ليـلاء إلـى الأردن ومنها إلى ليبيا، باحثاً عن مسـتقبل يختصر فيه

سنوات كثيرة من الجد والاجتهاد لتحقيق الأحلام التي عادة ما يكون وقودها المال.

استمرت رسائله الأولى كمشاعره بالهطول غزيرة عليّ، إذ استفاض فيها بالحديث عن لواعج حبه وشوقه واشتياقه الذي خف وتباعد من رسالة إلى أخرى، صارت رسائل قصيرة لا تتجاوز بضعة سطور وكلمات حافية انطفأ لهيب جمرها، كتبت على عجل وملل. حتى جاء موعد الرسالة الأخيرة التي توقعتها في مرات أسبق من تلك، منعها من الوصول على ما يبدو تردده، وخجله في لملمة أعذار ومبررات يُقنع نفسه بها أولاً، فكتب وبحروف خجلى من كلمات تتوارى منزوية تحت حبرها الأسود، منكمشة على قصاصة ورق بحافة غير منتظمة قُطعت على عجل:

الغالية هناء الخصيب

بعد التحية والسلام

ليس في نيتي الإطالة عليك بشرح ظروفي ومقتضيات عملي الصعبة والشاقة في الغربة التي تتطلب مني جهداً إضافياً وتركيزاً عالياً حتى أنال ثقة مدير المستشفى وتجديد عقد الخدمة معهم، الأمر الذي سيحتم عليّ الأنشغال بشكل دائم وكلي في المستشفى.

عزيزتي هناء لا أريد الإطالة كما أسلفت، لكن بودي أن أخبرك وبإيجاز صريح عن عدم تمكني حالياً أو في الوقت القريب من الزواج بك، لذا أنا أحلك من ذلك الارتباط القائم بيننا ولك الحرية المطلقة في أن تبحثي عن نصيب يلائمك أكثر مني. مع خالص أمنياتي بحياة سعيدة ومستقرة.

أخوك حيدر

طويت الرسالة واضعة إياها في الحقيبة، وانشغلت حتى آخر النهار بالعمل، عند المساء عدت إلى البيت متعبة صامتة، ولاذت أمي هي الأخرى بصمتها بعد أن أشقاها التفكير والهواجس مما سيؤول إليه مصيري بعد سفر دكتور حيدر الذي لم تحسب له مشاعر الأمومة حساباً، الأم التي ودت لو تلقي عن ظهرها ثقل الهم، والتي ينبئها قلبها بما لا تعلم به، فأحسبه واشياً يشي لها وهو متوارٍ خلف الضلوع. كان حدسها أقوى من كل عبارات الطمأنة والضمانات التي قدمتها إليها كي يهنأ بالها المشوش بغبار صحراء ليبيا.

آثرت الصمت وإخبارها بصورة تدريجية، تستطيع معها مضغ الخبر ولو بصعوبة. لكن في المستشفى قررت أن أطلع الجميع على الأخبار طازجة، فأبدى بعضهم أسفه وانزعاجه من صنيع دكتور حيدر، مندهشين من أن يصدر منه فعل كهذا. ووصل إلى سمعي من بعضهن أن تأثير سحري محلي وليس دولياً، لذا بطل مفعوله وعاد الطبيب إلى رشده بعد أن كان مسحوراً طوال تلك الفترة. وأصبحت من جديد موضوعاً فاتحاً لشهية الثرثرة والاحاديث.

حاولت إحدى صديقاتي أن تواسيني على حزني الذي لم أشعر به كما يجب، أو بالأحرى لم أخلص له كعادتي مع الهموم والأحزان، فسقطت دموعها تأثراً عليّ، ولم تذرف عيناي دمعة، وكل ما حاولته هو أن أناولها منديلاً تمسح بها سيل الدموع الذي اجتاحها، لأجلس قربها أواسيها وبئري خالية حتى من دمعة واحدة على سبيل المجاملة.

أدهشني الموقف للغاية، أهو مرض جديد أصبت به أم عدوى التقطتها من زمن غادر، وحياة حبلى بالمفاجآت الصادمة؟!... نعم

إنه مرض... مرضك المزمن وعلتك الأبدية... إنه رياض الذي يفسد عليك أي حزن أو مشاعر إذا ما قارنتها مع حزنك على فقده المباغت والمبكر.

رياض... رياض لا أظنك ستعرفني، لقد تشوهت ملامحي ومن قبلها روحي، لم أعد مناسبة لشخص مثلك، وضع حياته على المحك لأجل أن يقول لا... وبالمقابل أنتِ وضعتِ أخلاقك وكرامتك في الأرض لأجل أن تقولي نعم... نعم... نعم لكل إغراء قابلك... نعم لكل فلس مهما كان مصدره... بعت روحك للمال ولا أدرك كيف لم تبيعي جسدك؟! وقد عرض عليك لقاءه ثمنٌ جيدٌ. فعلاً لا أستطيع تفسير كهكذا سلوك!! أم اعتقدت أنك بمحافظتك على جسد ذبل وتغضّن هو هديتك لرياض في حياة أخرى، وماذا عن روحك المدنسة؟ ألن يستدل عليها؟ هل ستخفينها تحت طيات جلدك المتهدل وعظمك النحيل؟! أحقاً تحفظين وعاء القذارة نظيفاً؟! لا أفهمك... لا أفهمك... لا أدرك من أي مصدر تنهلين أفكارك ومفاهيمك لحياة سرقت الكحل من عينيها وتعطرت بعرق الكادحين!!... أنت مسخ... مسخ يا هناء القابلة، سيهرب منه رياض حالما تقع عيناه عليه. مثلما هرب منك زوجك برصاصات طائفية استقبلته عند مدخل الطريق نحو منزله في ظهيرة إحدى الجمع، حالما نزل من الباص الذي كان يقله. فخر صريعاً مضرجاً بدمه، بعد أن أطلق الرجلان الملثمان دراجتهما النارية بوجه الشمس متحدين حرارتها ووجوه الناس التي وقفت بأفواه فاغرة مدهوشة، كأنها تراقب مشهداً من عمل سينمائي أمريكي سريع الإيقاع. لكن الفارق هنا أن الدماء لاتزال دافئة لزجة خضبت تراب الوطن العطش.

تمر نسائم الهواء باردة على ثياب مبللة فتزيد من ارتجاف هناء وشعورها المتزايد بخدر أطرافها وثقل رأسها وهي في متاهة تزداد في اطرادها مع بيوت نهشت الرطوبة والزمن جدرانها، باهتة لا لون لها سوى أنها تستقيم بعضها مع بعض في أزقة ملتوية متعرجة لا تصلها السيارة إلا بشق الأنفس، وتذمر سائقها موصلاً بسباب ولعن لحياة تضيق على أصحابها دون أمل بسعة وانفراج قريب.

لم يغمض لها جفن منذ أول أمس إلا ساعتين أو ثلاث بعدما انتهت نوبتها الليلية وفرغت من توليد فتاة وضعت مولودها البكر، ما كان ليتجاوز عمرها الخمسة عشر ربيعاً بحال من الأحوال، نحيلة رقيقة كزهرة، لولا بطنها لمنتفخة التي تكاد تلامس وجهها. تمسك بطرف عباءة أمها باكية بيد وتمسك بالأخرى أسفل ظهرها الدقيق، تجهل كيف تتعامل مع نوبات ألمها المتكرر، مستعينة في كل مرة بأمها لعلها تخفف عنها هذا الألم الغريب الذي يكاد أن يشطر عمودها الفقري، ثم يسري في موجات متصاعدة إلى بطنها كأنه ينزع أحشاءها. ألم وحشي لا يقدر جسمها النحيل على صد هجماته المتكررة، فأصفر لونها وارتجفت أطرافها في حركة لاإرادية خائفة. استمر عذابها وطال انتظاري، حتى جاءتها آلام الطلق دفعة واحدة قوية عنيفة استثمرتها أنا في استلال مولودة لا يتعدى وزنها

الكيلوغرامين. وآمل أن يتعدى حظها حظ أمها، ولا يعترض طفولتها ودراستها فقر يفتح بابه لأول طارق، تزف إليه عروساً، فتخبئ دميتها في حقيبة جهازها، وتدفن أحلامها في أول ليلة عرسها.

أوه... كم حمدت الله على أني لم أذعن لإلحاح وإصرار عمّ ابنتي لأجل تزويجها من ولده، بذريعة رغبته في مساعدتي وتخفيف حمل مسؤولية وأعباء ثلاثة أيتام اختطفت رصاصة غادرة حياة أبيهم.

لكن أبداً لن أصغي له أو أراجع نفسي مثلما طلب مني، فهبة لا تزال صغيرة على حمل مسؤولية زوج، يكفيها الآن أن تهتم بدروسها، وتعوض عن خيبتي بذاك الولد الذي أفسده دلال اليتم والتفرد بكونه ذكر العائلة الوحيد والابن البكر، الذي ولد ضعيفاً هزيلاً في الشهر السابع، فأسبغنا عليه كل اهتمامنا ورعايتنا لنجني منه قلة أدب وسوء اكتراث. لكن أن يصل إلى هذا الحد من سوء الخلق!؟... لم يطرق ببالي ما فعله... لن أستطيع... يا الله أنت تنزل عقابك... وأنا أستحقه... أستحقه... أستحقه أنا.

سرت في أوصالها رعشة برد وخوف من أن موعد تسديد فواتيرها قد حان. تلفتت حولها تبحث عن إشارة تأخذها إلى الشارع العام، تقطع حيرتها في الاختيار بين طرق تنقض عليها من كل اتجاه. كأولئك الرجال الذين ظنوا أنها ستكون لقمة سائغة لأفواههم الشرهة بعد تخلي دكتور حيدر عنها وفسخ خطوبته منها، فتهاطلت عليها العروض بين زواج متعة أو زوجة ثانية ومنهم من تجرأ أكثر وقدم عرضا سخياً يضمن فيه علاقة وقتية خارج أسوار الزواج وقوانينه.

احتقرتهم واحتقرت قبلهم نفسها والظروف التي هدت هكذا نوع من الرجال إليها كأنها غنيمة حرب تُركت بعد انهزام أصحابها.

لـم تتوقـف العـروض ولم تسـلم من القيل والقـال إلى أن جاءت إلى المستشفى بعد فترة بخاتم خطوبة أغلق باب الرغبات والأفواه.

انصاعت هناء هذه المرة إلى رغبة أمها تماماً دون تمعن في حال الخطيـب، كانـت كمـن يريد الخلود إلـى نوم طويل، ليس في أحلامه هواجس وتفكير، وتزوجته بعد أسبوع من الخطوبة.

كان صالـح متوسـط الحـال، يمتلـك محـلاً لتصليـح الأجهـزة الكهربائية المتجاوزة لعمرها الافتراضي منذ أعوام، وقد أصبح محل سكناه بعد أن توفيت أمه منذ أشهر. فكان عرض أم هناء في أن يعيش معهم ويوفر ثمن أجرة البيت الصغير الذي يقطنه عرضاً سخياً، قبلت به كل الأطراف. ولم يتغير على هناء شـيء سـوى غرفتها التي أعيد طلاؤها على عجالة وأثاث زوجية جديد.

اتسـمت علاقتهما بشـيء من السـطحية فلم تتطور، كل احتفظ بحـدود عالمـه وخصوصيتـه، لم يحـاول أي منهما رفع تلك الحدود وإعـلان الوحـدة. هـو يقضي معظـم الوقت في دكانـه، يد تبحث في أسـرار غسـالة وأخـرى تبـث الحياة فـي ثلاجة نفقت يأبـى أصحابها التخلي عنها، عمل يبتدئ صباحاً ويعود وقد أسدل الليل جفونه وهو متعب، مقلاً في حديثه وكأنه باع جزءًا من لسانه، وربما قلبه الذي لم أسمع نبضه أو أتحسسه.

كان غاية المطلوب لأمي وربما لي أنا كذلك، ظلٌّ رجل انعكس على جدران البيت باعثاً في قلب أمي الطمأنينة، ومغلقاً باب الثرثرة، ولو أن بعض النوافذ سربت لي خبر زواج دكتور حيدر من طبيبة عراقية تعمل هناك معه في المستشفى نفسها، بقصد استفزازي ومشاهدة رد فعلـي الـذي اختصرتـه بكلمتيـن لا أكثر في كل المـرات التي نُقل بها

الخبر إليّ وكأنه سبق صحفي، (مبارك له).

حقاً كنت أعني ما قلته، فقد كان دكتور حيدر محاولة للتعويض والنسيان، لا أنكر أني شعرت بالراحة معه. لكن.. أبداً لم يخفق قلبي مزدحماً بنبضه، متسارعاً للقائه أو متلهفاً لرؤيته. لقد ماتت كل تلك المشاعر ودفنتها حين رحل رياض، وترك قلبي أطلالاً غير صالحة للسكن مهجورة، فأغلقت بابه إلى غير رجعة مودعة.

بعد سبعة أشهر من زواجنا أنجبت ابني البكر أمجد، الذي تحمس أبوه، وعلى غير عادته، لإطلاق هذا الاسم عليه. كان في نيتي اسم آخر، لكن حين رأيت اندفاعه لهذا الاسم لم أشأ أن أعكر صفو تفاعله، والذي اعتبرته أنا بادرة خير، وبداية تغيير لسلوكه المنطوي الصامت. فكانت ظنوني في غير محلها، إذ عاد إلى سابق عهده، حتى الولد الذي تحمس لمقدمه لم يثنه عن تغيير عاداته التي ألفتها مثلما ألفت غيابه عن البيت، فساعات تواجده في البيت وجهٌ آخر للغياب. بالطبع أمي لاحظت ذلك، وسألتني متجهمة عدة مرات فيما إذا كنت أنا السبب وراء ذلك، رغم أنها تعرف جيداً الإجابة، فلامت حظها وسوء انتقائها لزوج ابنتها. والتمست مني الصفح لها والصبر عليه، فطمأنتها بأن رجلاً مثله أهون عليّ كثيراً من رجل ثرثار، نزق الخلق، عصبي، فوافقتني الرأي مقتنعة أو ربما ادعت ذلك حتى لا تزيد الطين بلة، ولا تؤلب مشاعري ضده واكتفت بسؤال موارب خجول:

- وكيف هو كزوج معك؟... هل أنت راضية؟

اندهشت للغاية، فلم أتوقع أن تواجهني أمي بهكذا سؤال، صحيح أنها صاحبة نكته ولا تتحفظ في الحديث كثيراً مع صديقاتها ونساء الجيران، لكن معي كانت دوماً متحفظة، لا تتطرق إلى أحاديث

من هذا النوع، محافظة على قداسة الأمومة وهيبتها. تلعثمت كمراهقة، ودون أن أنظر إليها أجبت:

- أمي... لا تقلقي كل شيء بخير.

لكنها لم تقتنع بهكذا إجابة، فعاودت السؤال نفسه بشكل آخر:

- هل هو مرتاح معك يا ابنتي؟!.. ساعات دوامك طويلة و... قبل أن تسترسل في سرد تفاصيل يومي التي أعرفها أنا جيداً! بادرتها بالقول:

- أمي أخبرتك أننا بخير، وكل شيء يسير على ما يرام!

بتردد وشك كبير قالت:

- لكن ما حسبه؟! ينزوي في مجلسه قليلاً، ليدلف بعد ذلك إلى غرفة نومه كأنه نزيل في فندق!

- هو طبعه هكذا، فلا تقلقي رجاءً.

لم تعتد أمي على سماع ما يقال لها حين تعشش في رأسها خاطرة أو فكرة، وعاودت تتساءل بصوت منخفض وكأنها تحدث نفسها أولاً ومن ثم أنا:

- أخشى أن تكون إقامته في بيتنا هي سبب عزلته؟!

- أمي أرجوك كفى... لقد أعطيت الموضوع أكثر مما يستحق، وبدأت تهرشين فروته.

- بنيتي أصدقيني القول (وهي تتفحص عيني، ملتمسة منهما صدقاً كذبه لساني) هل تحدث معك بشأن هذا الموضوع؟! وهل يضايقه المكوث بيننا في هذا البيت؟!... من حقه أن يستقل ببيت خاص به... لا ألومه!

وصمتت واجمة إلا أن أزيز هواجسها المتضاربة قد بلغني.

- أمي أصبحت تبحثين عن المتاعب، ما بالك اليوم؟
- يا ابنتي أنا فقط أسأل، أريد أن أطمئن عليك.
- إذن اطمئني، كلانا بخير... ولا شيء مما يدور بخلدك قد حدث، هو لم يخبرني ولو مرة برغبة كهذه (وضحكت هناء مستأنفة) إلا إذا كنت أنت من يرغب بذلك، أخبريني يا أم هناء أخشى أن تكون هذه رغبتك أنت!

ومنذ تلك الليلة لم تسألني أمي أي شيء عن أحوال صالح، مستسلمة إلى طبعه، مقنعة نفسها بأنه أفضل من كثيرين، وصوت سعاله الليلي من أثر التدخين أفضل من لا شي، وقد اتفقت أنا معها تماماً، فظلي وحدي لا يكفي لكي أعيش حرة دون أن يطالني شرر الثرثارين وألسنتهم الحادة.

ظل صالح أو سواه ليس مهماً، فثمة ظل وحيد كان على هذه الأرض من رغبت أن أستظل به من حر الحياة وقيظها... ظل وحيد (واختلطت دموعها مع حبات المطر في توليفة قلما تتكرر).

ما باله صالح؟ هو أفضل من غيره... كفاني أنه لم يعتمد على راتبي ومدخراتي، أخذ على عاتقه مصاريف بيته وأطفاله، تحمل مسؤوليته كرجل حقيقي... لم يسألني يوماً عن دخلي أو يطالب بجزء منه، كما يطرق سمعي من حديث الأخريات اللواتي لا ناقة لهن ولا جمل في راتب يُسلب من الحقيبة كل نهاية شهر، لتعود خاوية على عروشها كما كانت.

ما باله صالح!... وقد وفر عليّ في مصاريف البيت النسبة الكبيرة، فاستطعت أن أوفر جزءًا كبيراً من راتبي إضافة إلى الأموال التي تدر عليّ من جراء توليد بعض من النساء في البيت، فيكون

العطـاء جزيـلاً ويصبـح أجزل إذا كان المقابل إجهاض روح تتشـبث في رحم يلفظها دون إرادة منه.

لـم أكـن أنـوي العمل في هذا المضمـار، لكن عملي مع أحدى الطبيبـات فـي عيادتهـا الخاصـة فرض عليّ مسـاعدتها في هكذا نوع مـن الحـالات الممنوعة قانونياً، والتي تقوم بإجرائها ليلاً حالما تفرغ العيادة من المراجعات.

في البداية كنت أسـتغفر الله كثيراً وأؤنب نفسـي وألومها، لكن مع تكرار هكذا حالات خف استغفاري وخدر ضميري بالحقن التي كنت أخدر بها المريضات، حتى صار العمل معتاداً، لا يحرك شعرة من الضمير الذي أوشك أن يُصلع. وحين انتقلت الطبيبة إلى محافظة أخرى أخذت على عاتقي إتمام رسالتها النبيلة من إحدى غرف بيتي، بعـد أن هيأتهـا بكل المسـتلزمات المطلوبة. فاكتسـبت ثقة الكثيرات وصارت لدي زبونات من طبقات مختلفة غنية وفقيرة، مثقفة وجاهلة، فسـاعة الشـيطان التـي يتهمونهـا بـه ويورطونه بها تدق بـاب إرادتهن الموارب، وأبقي أنا بدوري بابـي مواربـاً لأصحح ما ارتكبه الشيطان وأنظف خلفه.

أخطاء... أخطاء وخطايا تتكرر باستمرار، وبراعم تقطع رؤوسها المناجـل، مـا عـدت أسـألهن عـن القصة، وأبـدأ عملي حـالاً موفرة على نفسـي مجهود سـماع اتهام آخر للشـيطان المسكين الذي كثرت جرائمه، وموفرة عليهن سـرد هكذا روايات. لكني اليوم واليوم فقط بحاجة أن أسمع تلك الرواية ودور الشيطان اللعين فيها، لا بد لي أن أعرف التفاصيل، وأحدد دوره الشقي في هذه القصة.

كيف استطاعت أن تخفي علينا؟ أي شيطان تتلمذت على يديه؟!

كانت أمام أعيننا طوال الوقت، كيف أخفت علامات هكذا جريمة تكبر بيننا كل يوم طوال أشهر؟!... إنها لوقحة ماذا كانت تنوي أن تفعل؟! أية فكرة اختمرت في عقلها الغبي ذاك!! لم يخطر ببالي يوماً أن يصدر هكذا فعل من تلك المطيعة الهادئة!... أتراها كانت تستعد لمثل هذه العاصفة؟! كيف استطاعت أن تخفي على أمها؟ وأين أنت يا وفاء من ابنتك؟ أمعقول أن التفكير في السفر إلى ألمانيا، واللحاق بزوجك قد التهم عقلك تماماً؟... ألم تلمحي بطنها ولو لمرة؟ وأنا كيف لم انتبه إلى طريقة مسيرها، وعلامات الحمل على وجهها؟! هل أصابنا هدوؤها المفتعل بالعمى عنها؟! وذلك الغبي أتراه يعرف أم هو الآخر مثلنا تفاجأ؟ ويحك يا ابنة وفاء على هذه المصيبة.

لو أن صالح لا يزال على قيد الحياة لمات من جراء هذا الخبر بأزمة قلبية، فحمداً لله أنه مات برصاصة غريبة لا برصاصة ولده.

لم يرق له عملي المتعلق بإجهاض النساء، ونصحني مرات عدة في ضرورة تركه لما فيه من حرمة كبيرة ومعصية لله. وفي كل مرة أعذاري جاهزة ومبرراتي حاضرة حتى مل من الاعتراض أو توجيه أي ملاحظة مهما كانت صغيرة، مكتفياً بتمتمات يقولها لنفسه مطمئناً. لكنه خشي عليّ من جني ثمار أفعالي. ولم يتوانَ، طالباً مني أن لا أصرف من تلك الأموال الحرام – على حد قوله – على البيت أو الأطفال، فكان له ذلك، مدخرة مبلغاً جيداً في المصرف تركته ينمو ويكبر لأتعكز عليه في شيخوختي. لكن طَمَعي حال دون ذلك، حيث ركبت الموجة مع بعضهم وقمت وبعض زميلاتي باستثمار كل ما نمتلك مع مستثمر جديد، بعد أن زكاه إلينا زميل لنا في العمل، كذلك قنوات التلفاز التي لهجت متغنية بمشاريعه النهضوية العملاقة، وما

ستدره من أرباح على المستثمرين.

كانت فرصة العمر بالنسبة إلينا، وأن نقطع قطعة ولو صغيرة من كعكة الوطن، وأن نسهم في هكذا مشاريع ستقفز بحال البلد وبنا معاً في قفزة عريضة لا مثيل لها، تخلصنا من القلق والتفكير بالغد. فسحبت من المصرف كل مدخراتي وقدمتها على طبق من فضة لتلك الشركة، آملة أن تعود إليّ على طبق من ذهب. وابتلعنا جميعنا الطعم، فعلى مدار ستة أشهر كانت الإيرادات أشبه بالحلم، غزيرة دفاقة، أثارت غيرة وحماس من لم يشاركنا الحلم. فاندفع آخرون غيرنا ليقطفوا ثمار أموالهم ذهباً.

انتهت مدة صلاحية الحلم، فصحونا على الأنتربول يطارد ويتحرى عن صاحب تلك الشركة ومشاريعها الوهمية، بعد أن نصب واحتال على جهات حكومية في صفقات بالمليارات. ابتلع الأسماك الكبيرة والصغيرة على السواء، وربما هذا ما خفف من إحساسنا بالغباء، آملين أن لا تضيع الحكومة حقها، فتكثف البحث عنه مثلما وعدت على شبكات التلفاز.

بتلك الأموال، التي طالما رفض صالح مصدرها، اشتريت الوهم والحسرة على سنوات من التعب، وربما تشفي صالح وشماتته التي لم يظهرها للعيان، لكنه سمح لنفسه أن يعطيني درساً آخر ملخصه (إن الحرام ريح تجلب ما ستحصده الزوابع)، طالباً مني الاستغفار والرجوع إلى درب الحق والفضيلة.

مسكين صالح، كان ينفخ في شبك، ظن أن ما حصل لي هو الصفعة التي ستفيق ضميري، كان يعتقد بأنه لا يزال حياً، رغم أني قد دفنته جزءًا بعد جزء.

توعكـت صحتـي بعض الوقت مـن فعل الصدمة، وضاعت كل أماني سدى في إرجاع أموالنا بعد إمساك المستثمر المجهول الهوية، فقد أُشيع أنه قد انتحل اسماً آخر، وأن هذه ليست المرة الأولى له، هو كالشبح لم يره أحد، فكل الاتفاقات والتوقيعات أبرمت مع موظفين استخدمهم، حتى الحكومة التي تعاقدت معه في صفقات عملاقة لم يتسـن لهـا رؤيتـه ولا تعرف هويته الحقيقيـة. وبالمجمل قدم من قدم إلى العدالة من اتهم بالتواطؤ معه، لكن دون أن نسترجع ولو ديناراً واحداً من أموالنا.

هذه الذكرى تثير شـجوني وتعتصر قلبـي، لم أسـتطع اجتيازها رغم أني قد عاودت العمل بهمة أكبر، ولم أتحفظ في المطالبة برفع أجري، لا سيما في حالات الإجهاض، التي نفذتها بدقة وسرية عالية، الأمـر الـذي زاد مـن عـدد زبائني ولنقـل علـى الأدق زبوناتي اللاتي لـم يفلـت معظمهـن مـن براثـن الخطيئة حتى توطـدت علاقتي بهن، وافترشـت قلوبهـن الثقـة بـي. أواه يا لهذه المهنة... فيهـا تجد ألواناً من البشر وأطيافاً من الأنفس، قد تتعاطف مع بعضها، وتكاد أن تبتلع لسانك رعبا وصعقة من هول أساطير لا تخطر على بال بشر.

لست أنكر أني لم يعد يدهشني أو يصدمني أمر، كل شيء صار معتـاداً، ومـا يصيـب النـاس بالحزن والكدر والأسـى، أصبـح منظراً مألوفـاً كطلعـة القمـر ليلاً، فلا غرابة أن يسـوق الولد أمه إلى الشـارع وآثـار حليبهـا لـم تزل على فمه، يخون الرجـل زوجته، تتخلى المرأة عن أمومتها، تبيع واحداً من أولادها. قصص وحكايات كثيرة غرقت نفسـي، ومسـامعي معهـا علـى مدى سـنوات طويلة حتـى بت أعرف النهايات قبل إتمامها.

لكن تبقى حكاية نور من القصص التي شدتني وأثارت حفيظتي، التي أصبحت من الصعب أن تستثار.

لم تزل تلك القصة التي قضمت سنتين زمناً، حين سمعت طرقاً خجولاً على الباب، يتسرب إليّ من شباك المطبخ المفتوح إلى الخارج. لقد أصبحت معتادة للغاية على طرق الباب في أي وقت وبالأخص ليلاً، إذ يداهم الطلق بلا خشية أو خجل أغلب النساء فصار نومي خفيفاً، يوقظني حفيف الشجر لو مر ببالي ملامساً.

كانت شابة جميلة لا يتجاوز عمرها العشرين ربيعاً، خائفة مترددة، تتعثر بكلماتها مثلما تتعثّر بخطواتها وهي تتلفت حولها، لم أتفوه بشيء أنا سوى أني دعوتها إلى الدخول، فقد مر عليّ مثل هذا المنظر عشرات المرات. الشيطان... نعم الشيطان وضحكت في سري من ارتباكها وخشيتها، يبدو أنها المرة الأولى، وقبل أن أغلق الباب لمحت سيارة غامقة اللون من النوع الفاره الفخم، تقف على ناصية الشارع بعيدة عن مدى المصباح، الذي يلقي بضوئه في عتمة الشارع بصورة دائرية، فلم أتمكن من معرفة لونها، إلا أني استفسرت عنها من ابنة القمر – كما كان يحلو لي أن أسميها – فأكدت ظنوني بأنها السيارة التي أقلتها، فطلبت منها أن تذهب إلى السائق وتخبره أن يعود إليها بعد ساعة، وقوف مثل هكذا سيارة في حينا مدعاة لتأكيد الشك والشبهة التي طالتني من الحي بين مصدق ومكذب، حيث حافظت على سرية هذا النوع من العمل على زبوناتي وجاراتي من نساء الحي، لكن اللغط وحب الثرثرة حتى على أنفسهن قد أثار الشكوك حولي.

لم تنبس نور ببنت شفة، وألقت بنفسها على الأريكة مرتجفة الجسد، رغم أني أحرص دوماً على بقاء جو هذه الحجرة دافئاً،

استعداداً لأي حالـة ولادة طارئـة. سـألتها وأنـا أعد السـرير والعُدّة، عـن اسـم الشـخص الذي دلهـا عليّ، فهذه الأمـور لا تقبل المجازفة أو الخطأ، وحين أخبرتني بعد تردد عن الاسـم، طلبت منها الصعود إلى السرير، كانت ترتجف مذعورة كنعجة سيقت نحو منحرها، يملأ الخوف والدموع مقلتيها، وبكاء خافت صامت هز وجداني، باحثاً لها عن عذر أو تبرير لم تقفز هي عليه كعادتهن، فحاولت طمأنتها وأنها لن تشعر بشيء.

بقيـت فـي الغرفـة جالسـة على الأريكة قربهـا، أتمعن في هدوء قسـمات وجههـا وتعابيـره الطفوليـة حتى اسـتفاقت ببـطء، تتفحص حولها مذعورة، فأكدت لها أن كل شيء سار بخير، وما من داعٍ للتوتر أو القلق. ساعدتها على النزول من السرير، وأنا أمسك يدها البيضاء الناعمة الصغيرة، كل شـيء فيها يحدثني أنها ليسـت من ذلك النوع من النساء، لكني آثرت الصمت ولم أسألها حتى عن اسمها نفسه كي أتقـي الحـرج العظيـم الذي تراقص على محياها، واحتراماً لمتطلبات وسـرية المهنـة. وعلـى البـاب، أخرجت مـن حقيبتها مبلغـاً كبيراً من المال، حاولت أن أرجع إليها نصفه، لكنها رفضت وخرجت مسرعة قبل أن أشـكرها، تتلفع بسـواد الليل وعباءتها حاجبة عن أبيها القمر نورها، ودلفت إلى السيارة نفسها، مبتعدة عن الأنظار تبتلعها الظلمة، مخلفة في نفسـي فضولاً ظننتني قتلته طوال هذه السـنين بلامبالاتي وعدم اهتمامي.

شـمس الصبـاح جففـت ما علق بذاكرتي مـن ليلة الأمس، لولا أن يـدي ارتطمـت برزمـة النقـود التي طوتها الحقيبـة، فتهلل وجهي، ناسية أمر تلك الشابة، حتى أودعته في المصرف وأنا في طريقي نحو

العمل.

في الماضي كنت أودع معظم ما أحصل عليه، لكن الآن وبعد رحيل صالح، عادت مسؤولية البيت ونفقاته على عاتقي مرة أخرى. لكن.. لا ضير ما دامت هاتان اليدان موجودتان (ورمقت يديها بإعجاب، رغم ما تمر به من كرب وصعوبة، مدركة أن لو الكل خذلها، هاتان اليدان لن تخذلاها، وحمدت الله على هذه النعمة، وأما بنعمة ربك فحدث).

مرت شهور لم أحصها، فالأيام متشابهة، تجتر بعضها اجتراراً، تتوالد أشهراً وأعواماً. كنت أريد أن أضع رأسي على الوسادة، بعد يوم شاق، امتلأ رأسي بضجيج صراخهن في صالة الولادة، حتى حبة البانادول لم تنفع في كبح صداه وما خلفه من صداع لي.

سمعت طرقاً على الباب، ادعيت أني لم أسمعه، وتسللت إلى فراشي غير مصغية أو آبهة، لكن أحدى بناتي نبهتني إليه، بعد أن استمر. لعنت الساعة التي ولدت فيها، كما لعنت حظي العاثر وهذه المهنة وكل النساء على وجه الخليقة، قبل أن أقوم لأفتحه متثاقلة مرهقة.

اندهشت! تفتق وشاح النعاس، لم أتوقع أن أراها ثانية، هي تختلف عن تلك النسوة، ماذا يجري؟ هل فقدت فراستي في البشر؟! أهو تقدم العمر، الذي جعلني أخطأ في تقييمها؟ حاصرتني ظنوني، لا بل أفقدتني رباطة جأشي، وأنا أقول لها بأسلوب خشن:

أنت ثانية!... ماذا دهاك؟ وأردت أن أنزل عليها بسيل لساني وسليط كلماتي لولا دموعها التي وقفت حاجزاً بين قلبي وعقلي، فأنهر الثاني لأخرس صوته وأسمع صوت الأول... وآه من صوته...

صوت القلب لا يرحم... لا يرحم... لا يرحم.

لـم تدعنـي دموعهـا إلا أن أذعـن صامتـة، وأنفـذ لهـا ما جاءت من أجله، دون أن تنبس شـفاه كلتينا بكلمة، وحين أفاقت دلفت إلى السيارة نفسها التي كانت بانتظارها، ولم تنسَ قبل أن تخرج أن تطبع قبلة خجولة على خدي، وتترك في يدي مسرعة مبلغ المال ذاته كما في المرة السابقة.

تركتني هذه المرة لهواجسي وظنوني الليلة بطولها، أتقلب على فراشي، لم يغمض لي جفن، جافاني الكرى رغم شدة إعيائي وتعبـي، أفكر من عساها تكون هذه الفتاة، ومن رمى بها إلى هذا المنزلق، لا تبدو عليها إمارات فقر أو فاقة، فقد أسبغت علي بالعطاء في المرتين، كذلك ثيابها الأنيقة الغالية الثمن، ولا أنسـى السـيارة التي تقلها، هي آخـر طـراز. لا، حتمـاً ليس المال دافعها... لكن ماذا؟! ما الذي يدفع فتـاة بمثـل جمالهـا ورقتهـا أن تسـلك طريـق الأشـواك ذاك؟ لا يبدو عليهـا أنهـا مـن إياهـن، لا تملـك الخبرة ولا دهاء السـلوك أو النظرة التي ألمحها في عيونهن، مهما حاولن الادعاء أمامي بضعفهن وغلبة أمرهن أمام ظروفهن القاسية وحيل الشيطان ووساوسه. كنت أتكهن بمبرراتهن وظروف عيشـهن، أما هذه فلا أسـتطيع... تختلف عن كل الحالات التي صادفتني. ناعمة، نظيفة، مهذبة السلوك والحديث، ولو أنها لم تتحدث إلا القليل القليل. لكن لا... هي مختلفة، إحساسـي لا يكذب، وفراسـتي في البشـر هي سـر نجاحي ومواصلتي في هذه المهنة.

أوشـك الهزيـع الأخيـر مـن الليـل أن ينقضي، تتلاشـى نجومه ابتعاداً، وأنا لا أزال أحاول استجداء النوم ولو بغفلة صغيرة، الصداع

يتكالب على رأسي لا يهجع. نادى المؤذن إلى صلاة الفجر، فقمت من فراشي ملبية مع دوار لازمني طوال الصباح.

لم أَجِد تفسيراً مناسباً يقنعني، يبدد حيرتي، وظلت خيالات ابنة القمر تمر في بالي طوال اليوم. لم تستفز أو تثر انتباهي أي زبونة من قبل لهذه الدرجة، لكن بعد طول استغراق في تفسير ظروفها، قررت أن أضـع حـداً لذلـك ولا أعـود أفكر بها، فـوراء كل منا حكاية (دعي الخلق للخالق يا هناء).

بـدأ تلامـذة المـدارس بالخـوض فـي ميـاه المطر الـذي أغرق الطرقات، حيث المدرسـة تقبع مبتلة بانتظارهم: المقاعد باردة رطبة تفـوح منهـا رائحـة القـدم، نوافـذ لا تبرأ من كسـر هنا وشـرخ هناك، مصابيح ملت تكرار الدروس فغفت ناعسة على دار... دور... نار... نور، وطبشور رطب يقاوم بشجاعة سحقه على سبورة سوداء كالحة، لكـن بعضهـم فـوت عليه فرصة لقائها، بـدفء الفراش وحلاوة طعم النوم في ساعات الصباح الأولى.

لا أعلـم مـاذا يجـري لي؟! هل غسـل المطر عقلي؟ ألف وأدور منذ فترة في أزقة لم تعهدها قدماي، أين أريد الذهاب؟ لم أعد متيقنة من شيء.

اليقيـن، مـا هـو اليقين؟ هل اليقين ابـن الحقيقة أو الحقيقة بنت اليقين؟ من وُلد أولاً؟ من أغوى من؟ هي بحكم خبرتها؟! أم هو بفعل هرمونات في تصاعد وازدياد؟! لم أعد أعرف شيئاً، من المسؤول؟ أنا أيضاً!... أنا، أنا!؟... يا لهذه الأنا!... لقد شقيت معها، أعباؤها كثيرة ولا أحـد يرحـم... لا أحـد يرحـم يا رياض، حتى أنـت لم ترحمني، وما حصدك الموت مبكراً، إلا ليميط لثام الضمير، لتبزغ القابلة هناء، لتنزع قشورها فتفوح رائحة عفن قلبها. رياض... لماذا؟

شعرت بأسف عميق على حالها، على ألم فقدانها المبكر لرياض

وما خلفه من جرح توسط الفؤاد، فسخرت من نفسها، ويحك هناء شاب شعرك، وجفت عروقك، ونهر حبه يغرقك في كل مرة... فمتى تكبرين؟! متى تخجلين من نفسك؟ متى؟... متى؟ في أحلك أيامك وأصعب أوقاتك تستدرجينه إليك! تصغين لصوت أنفاسه، وكأنه الترياق الذي يبعث فيك القوة لأجل المواصلة. هناء... ماذا يجري لك؟ كفكفي دمعك الآن، لقد تركتها على الفراش مهملة وضيعة، وحملت ابنها قبل أن تلمحه أو تعرف جنسه. هناء... لا أكاد أفهمك، لا أفهم احتقارك لها وتبريرك لبعض زبوناتك الفعل ذاته، أم لأنهن يرشين ضميرك بالمال! لا تحمليها كل الذنب... هي الكبيرة، وما هو إلا ولد مراهق طائش... كيف سمحت له؟ أدركت الآن سر عدم اكتراثها بأخبار زوجها وانقطاع تواصلها معه، هو نفسه يفتقد سؤالها عنه، وحين أخبرتني أختي متضايقة من رغبة ابنتها في الانفصال عنه، لم أصدق ذلك مطمئنة إياها على أنها رد فعل لغيابه عنها وافتقادها له.

لم أكن أظن أنها ترغب جادة في الطلاق، حتى عندما طلبت من أمها إخبار أبيها وزوجها برغبتها تلك. لم أوافق وفاء ونصحتها أن تتريث، فما هي إلا رغبة مؤقتة تصدر عن ابنتها من فرط الغياب. هدى أنت خارج كل توقعاتنا، كيف... كيف لم نكتشف؟!

أَوَيكون الشيطان قد وسوس تارة أخرى بعقلك أنت كذلك، أهي الرواية نفسها؟! بطلها شيطان مسكين، واثنان لا حول لهما ولا قوة أمامه. يا إلهي كم مللت من سماعها على شفاه آثمة تقطر رغبة، وندماً مصطنعاً.

جيل جديد لا نعرف عنه إلا القليل، جيل يخشى منه الشيطان أن يلوث سمعته. ربما هو جرس إنذار لي لأنتبه إلى ابنتيّ أكثر، لا... منذ

هذه اللحظة سأتخلى عن ثقتي، وأرتدي الحذر درعاً لذاك الشيطان المتربص الخبيث.

آه يا صالح لو كنت موجوداً.. أتكون أول الشامتين؟ كم دخلت معه في نزاعات، معتبراً إياي وأمثالي من نحرض على هكذا أثم، ولولانا لما استطاع أمثالهن الهروب من الجريمة والنفاذ من سوء العاقبة. زعقت بوجهه مهتاجة من فداحة اتهامه، وصببت عليه سيلاً من شتائمي التي ألوذ بها حين تنقص لدي ذخيرة المنطق والفكر السليم. لا أقوى على الثبات أمام انهمار كلماته، وما تحمله من حقيقة، (لكن أتطلب مني أن أترك إحداهن تموت بآلامها! أين الإنسانية؟ أنا لست الله... لأنصب عدالتي، لست... يا صالح).

إذن لا تكوني اليد التي تمدهن بالعون والمساعدة لأجل المواصلة في طريق المعصية. (أوه يا صالح أنت لا تود أن تفهم).

وأخاصمه عدة أيام بعدها. لكني رغم استقتالي في الدفاع، يخز ضميري صوتٌ منهكٌ، لا يلبث أن يصمت مع أول طرقة للباب، ونداء استغاثة من ساعة شيطان.

ظن صالح مع الوقت أني ضلع أعوج لن يستطيع تقويمه، فاستنجد بأضعف الإيمان، وحرر ذمته أمام الله، لتبقى ذمتي مثقلة... بذمة مثقلة طفت حول بيت الله سبع مرات، آملة أن يخف حملي، بعد أن وعدت الله أن لا أكون شريكاً في ساعة الشيطان تلك. استطعت الحفاظ على وعدي إلا في بعض الحالات، ليس لأجل المال، بل لأجل الإنسانية، لأجل أن يبقى لديّ ذرة كرامة أستطيع أن ألقى بها رياض هناك.

غُدر بصالح في ذات السنة التي حججنا فيها البيت، وكان

شرطه أن تكون كل مصاريف الحج والنفقات المترتبة عليه من أمواله الخاصة، رفضت ذلك في البداية معلنة إصراري على أن أموالي من عرق جبيني، ولم أسرقها من أحد. بهدوئه الحازم استطاع أن يروض ثورتي ويقنعني برشاد طلبه، فانصعت لرغبته لأضمن رحلة نظيفة إلى الله خالية من أي غش أو زيف، وأفتح صفحة جديدة من كتاب حياتي، الذي اصفرت أوراقه.

لم يكن قريباً مني، ولم تجمعنا إلا ساعات قلائل يكون فيها كلانا متعباً لا ينوي فتح باب للحديث أو حتى نافذة، فلم أتعرف إليه جيداً، رغم أنه عاش معي قرابة عشر سنوات، لكن في رحلة الحج معه، أظنني عرفته أكثر، متأنٍّ مسالم، لا يطمع بكثير الحياة، يضع الله نصب عينيه.

طوال تلك السنوات لم يتسلل حبه إلى فؤادي، لكني بت أكن له من المودة الكثير الكثير، كان أكثر من ظل.

بملامحه السمراء ويديه الخشنتين يستطيع المرء أن يدرك أنه شخص عصامي، جنى كل فلس من تعبه واحترامه لذاته وخشيته من الله. زهد في حياته، لم يهتم لنوع الطعام أو الملابس التي يرتديها، بسيط لم تزغ الحياة عينيه ببهرجتها.

انحصر عالمه بين البيت ودكانه، لم يخرج عن حدود البصرة إلا ما ندر، كان حارسها الذي لم يأبه لكل أنواع الفتن التي شتّتت تماسك نسيجها وزرعت فيه بذور الطائفية المقيتة التي لم تعهدها من قبل، إلا بعد أن دنست أرضها أقدام المحتل المجلجلة بالوعود الزائفة عن الحرية والعيش الكريم. رفض أن يغادرها مثلما فعل البعض، ولم يطلب منها سوى الموت على ترابها، فكان له ما أراد.

لم أتوقع أن غيابه سيترك أثراً عميقاً في نفسي وفراغاً بين جنبات روحـي، التـي ألفـت نصائحـه، وطريقته السـهلة فـي طمأنتي وجلب السكينة لها. فاتني أن أتعلم منه العيش بسلام وتناغم مع من حولي، أو لربما حاولت لكن روحي المغمسة حتى قاعها في ماديات الحياة وجلبتها وتناقضاتها حالت دون ذلك.

كنت أحسده دوماً على نعمتي القناعة والرضا اللتين يؤطر بهما حياته.

لـم يطلـب مـن الحياة إلا ما وهبته، حتـى معي لم يطالبني بأكثر مما منحته، تقبل حزني وشـرودي، طبعي الحاد وكل ألوان أمزجتي، غـض نظـره عـن عملي بعد أن أغلقت أمامه كل أبواب النصيحة التي أراد بها أن يخلصني من آثامي وأخطائي.

أشـفق علـيّ واعتبرنـي ضحيـة حـروب متسلسـلة بـدأت بيتمي وانتهـت بـي أرملـة. فكثيـراً مـا دخـل عليّ الغرفة وشـاهدني أنشـج بدموعي وحسرتي، احترم خصوصية ماضيي دون أن يسأل، فلم أفتح أنا معه أي صفحة من كتاب حياته السالفة، والتي لمحت فيها جرحاً أحسن مواراته فلم أستفسر منه عنه، واكتفيت بالسؤال عن جرح ترك أثراً عميقاً على بطن ساقه، لم يستطع معه الشعر أن يغطيه جيداً. فألزم صالح أن يجيبني عليه ولو بعد تردد فقال متنهداً:

أنـه جـرح حـرب وصديـق فقدته فيها، كنا فـي الموضع ذاته في شق في حفر الباطن نتدارى من وابل قصف الطائرات الأمريكية على جيش لم تكد جراح حربه الأولى أن تبرأ. سـقطت قذيفة من إحدى طائرات الأباتشـي قريبة من الخندق الذي انزوينا فيه، فأصابته شـظية في رأسـه وأنا في سـاقي، ما كان عليها أن تخطئ في قياس المسـافة

هكذا بين الرأس والساق! شهق أنفاسه الأخيرة في لحظات، لكن عينيه بقيتا مفتوحتين ترمقانني بنظرة أحسست من خلالها أن روحه قد غادرت بهدوء مطمئنة.

بالساق المجروحة هذه عبرت صحراء، امتدت على وجهها أشلاء وجثث جنودنا وسيلٌ من قطعات عسكرية فرت من أتون حرب غير متكافئة، تاركة مدافع ودبابات تذود عن نفسها من قنابل تهطل عليها من السماء.

خشيت الموت بعد كمية الدم التي نزفتها ساقي وأنا أجرها على الرمال، وعند أقرب بيت لدى حدود الصحراء رميت بنفسي نصف واع أو بالكاد. وحين صحوت بعد أكثر من يوم، وجدت ضماداً أبيضَ يسورها. مثلما سور علاقتي بأصحاب ذلك البيت امتناناً وفضلاً لن أنساه ما حييت، إذ كنت ضيفهم على مدى أسبوع، تلقيت فيه حبهم ورعايتهم، حتى التأم الجرح. وهنا تلفظ صالح كلماته الأخيرة بحسرة متنهداً، وكأن جرحاً آخر استطال بجسده بدلاً من الأول.

تحمست للاسترسال معه والمشاغبة في الأسئلة، إلا أني تخليت عن هذه اللعبة لئلا يرتد سهمها عليّ. وددت لوهلة أن أسأله عن حياته السابقة، عن حبيبته الأولى التي ألمحها أحياناً في قرص عينيه تبتسم، فينزع عن وجهه قناعه العابس المتجهم ويبادلها بالابتسام. لم أجرؤ مرة على سؤاله عن سر تلك البسمات، لكني شعرت بالسعادة لأجله، ومن يدري فلربما كانت تلك اللحظات الوجيزة التي تمر به على عجل، هي وقود استمراريته الذي ينفقه بحذر وحكمة.

لولا أني سمعته ذات مرة، حين كان محموماً، يهلوس بصوت خفيض هامساً باسم هبة، ما كنت لأوقن من صدق حدسي، وحين

اقترح أن يطلق على ابنتنا اسم هبة، ابتسمت للفكرة التي راودتني، وأنا أقول لنفسي، يود أن يردد هذا الاسم بشكل قانوني، أن يسمع صداه بين حنايا البيت دون أن يحاسبه أحد، أن يتوضأ بحروفه بحجة الأبوة التي طغت صادقة على مشاعره لهبة ابنته، التي أولاها حبه وتعلقه الواضح بها، فكانت ابنة أبيها المدللة، التي أنصفها في كل مشاكساتها مع أخيها أمجد.

احترمت فيه حبه الصادق لهبة تلك، وثمنت كل مشاعره نحوها، وكيف لا وأنا من الذين تسعفهم الذكريات عندما ينزف جرح الواقع.

احترم كل منا خصوصية الآخر، دون أن يغوص بماضيه وذكرياته، لا أعرف إن كان هو أيضاً قد لمح ظلال رياض بعيني، أو شعر بارتباك أنفاسي حين يقترب مني، شرودي وتقلب مزاجي.

الغريب في الأمر أنه لم يسألني يوماً، ولو بدافع الفضول عن قصة أطلال بيت جيراننا المهجور، وحتى عندما تستذكرهم أمي وتصلي على أرواحهم لا يحك أظفر الفضول لسانه. فظننت أن دقات قلبي قد وشت بي عنده، كذلك لم يسألني عن سر حبي وتعلقي بالتوأم سعيد ومسعود، وأنا لا أخلف لقلبي موعداً معهما في كل شهر، حتى بعد أن أصبح لديّ أطفال، وارتوى ظمأ أمومتي كما كان يعتقد بعضهم.

هم لا يدركون أن هناك ظمأً لا ارتواء منه، وأنا أتلمس في كل مرة مواطن الشبه وهي تكبر أمام عيني، أراقب عن كثب بعض الطباع والعادات نفسها، أشم فيهما عطره، أحتضن قلبه، هما ابنا القلب لا الرحم. أعود من العمارة محملة بذخيرتي للشهر القادم، وجرحٍ أذر الملح عليه خوفاً من شفاء أو نسيان لا يرحم.

لـم أصـدق يومـاً أن النسـيان نعمـة كما تصدح كلمـات الأغنية الشـهيرة الحزينة، وكيف تسـتنجد بالنسيان أن يخلصها. ذلك النسيان الـذي أقطـع جـذوره كل يـوم خوفاً من أن تضرب القلب، وأسـتحثه بذكريـات أعتقهـا فـي قواريـر كنبيـذ غالي الثمن، لأفتـح إحداهن في ساعة سهاد أو شجن.

هنيئاً لك يا صالح... كيف عشت خارج أسوار الحياة وعقدها؟! ولم يشغل بالك الغد وإن تأزمت الظروف! لم يشقك كشف حسابات تراجعه كل آخر شهر.

ولولا خشية والدته عليه من ضياع حقه ما كانت لتوزع إرثها من أبيها بينه وبين أخيه، وتحثه على شراء دكان، يوفر له حياة مستورة، لا يضطر معها إلى مد يده لأخيه المغلول اليد، الذي ورغم حرصه وحبه للمال لم يوافه النجاح في أي مشـروع، وضيّع نصيبه من الإرث في طمع وطموحات لا سقف لها. لكن ظلت عيناه متسمرتين عند سقف دار أخيـه، ومشـاريعه إزاء تلـك الـدار، والتي حـاول إقناعي بها وهو ينسج لي كل يوم حكاية بلون، متمماً تلك المتواليات بالتودد لأرملة أخيه، ورغبته الصادقة في مساعدتها بتربية الصغار، مانعاً عنها أطماع الناس وألسنتهم، الأمر الذي حرضه على التقدم لطلب يدي من أمي، متعهداً أمامها وأمام الله بأنه سيكون الأب الذي فقدوه، وكيف لا وهو عمهم وأولى الناس بتربيتهم، والاهتمام بأحوالهم.

كانت أمي شـبه مقتنعة بكلامه، فهي الأخرى تخشـى علينا من جور الحياة ومكابداتها غير المتوقعة.

أذكـر تلـك الظهيـرة بعد تناول الغداء، حين كنا نشـرب الشـاي، كيـف اسـتدرجتني بالحديـث لتطـرق بـاب أذني وعقلي معـاً، عندما

أخبرتني بنية أيوب الصادقة في الاقتران بي طمعاً في مرضاة الله، وجنة عرضها الأرض والسموات. انتابني الضحك، راجية أمي أن تكف عن هذا الحديث، لكنها أصرت على الاستمرار، محض محاولة في الطرق على الحديد وهو ساخن. فلم أتمالك أعصابي وزعقت رافضة وقاطعة أطراف هذا الحديث الممل، تاركة إياها تكمل تخطيط المشروع في خيالها، دون أن أكمل قدح الشاي الذي استبقتني رائحته عند الباب وأنا أصفقه خلفي خارجة إلى المستشفى.

هناك في المستشفى حاولت إشغال نفسي عن هذا الموضوع، الذي ستلوكه أمي أياماً حتى تصدع رأسي، وتتأكد تماماً أن تجرب كل الثغرات لأجل اختراق عقلي والوثوق بحصافة رأيها، وكأنها تعلم أن باب القلب مغلق والى إشعار دائم.

وبالفعل لم تيأس أمي، وبقيت تصارع معي جولات وجولات، تنتظر أن أستسلم لصوت العقل وأترك صوت قلبي الذي وصل نداء استغاثته إلى سمعها من أول زغرودة تسللت إلينا من بيت أم رياض معلنة نبأ خطبته.

(لم أكن أملك إلا الصبر والدعاء، الدعاء لك يا ابنتي بالشفاء من ألم لم أجربه، من ألم أعتقتني الحياة من تذوق مرارته، فذقته أنت بدلاً عني. آآآه يا ابنتي كم تمنيت أن أضمد لك جرحك، أوقف نزف قلبك، إلا أني سمعت أن دواء هذه الجروح هو السكين نفسها التي جرحت. وعندما لمحت في عينيك الرضا لعرض الدكتور، أوشكت أن أصدق بأنه الدواء، لكن يبدو لي الآن وبعد هذا الوقت الطويل، أن مرضك مزمن، لا تنفع معه اللقاحات ولا مضادات الالتهابات. يا ابنتي أنا لا أطلب منك أن تحبيه، أو تقربيه من قلبك. كل ما أطلبه أن...) ولم

أدعها تكمل عبارتها رغم دهشتي ومفاجأتي الكبيرة بحديثها قائلة لها:

- رجاءً أمي، لا تكملي... أعرف تماماً ما ستقولين، وفري علينا هذا العناء. لن أحتاج إلى ظل رجل، لقد اكتفيت، آن لي أن أعيش في الضوء، وحده ظلي يرافقني. لم أعد تلك الشابة الصغيرة فلا تخشي عليّ من شيء.
- أواه يا هناء... أنت تصعبين الأمر على أمك... يا ابنتي أنا أحاول أن أرد عنك الطامعين.

ضحكت من كل قلبي رغم تلبد أجواء حديثنا بغيوم ودموع أمي، وأجبتها:

- وهو من أول الطامعين وأكثرهم جشعاً، ما بالك أمي؟ أين فراستك وحسن تبصرك؟ كيف خدعكِ هذا المحتال؟!

صمتت أمي واجمة تفكر بكلامي، فأردفت بثقة أكبر لأجل إقناعها، لأني أدرك جيداً مدى قدرتها في الاسترسال بالموضوع ذاته حتى لو كلفها ذلك دهراً ما لم تقتنع:

- هو يا أمي همه الدكان الذي تركه صالح لنا، لا أيتام صالح أو أرملته، استفيقي أمي... أيوب لا يبحث إلا عن مصلحته، وقد تصادف أن وجدها هنا.

بدا لي أن وقع كلامي قد بدأ مفعوله يسري في عقلها، وما صمتها إلا بادرة تفهم واستسلام، فأكملت، لكن بنبرة هادئة مسترضية:

- كم من مرة زارنا أيوب عندما كان أخوه على قيد الحياة؟ دعيني أنعش ذاكرتك... مرة أو مرتين! هو لا يميز أولاد أخيه عن بقية أولاد الجيران، أمي... ما خطبك؟ لم أتوقع أنه أستطاع أن يسحرك بكلماته ووعوده المعسولة تلك!...

يـا الله كـم هـو محتال وماكر!؟ حين أدرك أنه قد فشـل في إقناعي، توجه إليك، ليضمن إلى صفه خشـية الأم وقلقها على ابنتها، وها أنت وقعت فريسة مكره، وانصعت لرغبته في إلحاحك هذا لأجل الموافقة عليه.

لقد التقاني في المستشفى، ووضحت له جلياً بأني لست راغبة بالـزواج لا منـه ولا مـن غيره... هـذا المحتال لم يكتف بجوابـي رداً لجشعه وطمعه، فطرق بابك، أرجوك لا تعكري صفو حياتنا بمثله.

بتردد وكلمات متقطعة تتفحصها عن كثب، يتذوقها لسانها قبل أن تلفظها قالت أمي:

في النهاية يا ابنتي، أنا لا أبحث إلا عما يسعدك أنت وأطفالك، أريـد أن أرحـل بـروح خفيفـة غير مثقلة بالهمـوم. لكن عديني يا هناء بأنك ستدعين باب القلب مواربا لكل ما لا يخطر على بال، لا تغلقيه بوجه صدف الحياة، لا تقفي كصخرة وسط نهر، واتركي لروحك أن تنساب مع مائه.

أنا لن أنسـى يا ابنتي، صوت صراخها المرعب، وكأني أسـمعه الآن (واقشعر بدنها مهتزاً) شرر النار المتطاير، يحيطها وسط الظلمة، دورانها المستغيث حول نفسها، كتلة النار الملتهبة، تسقط أرضاً، فزع يكمم الأفواه والأيدي، نار تتصاعد وتخبو على وقع صراخ وحشـي يشق سواد الليل ويصم أذن العقل، فلا أحد يحرك ساكناً، أقدام شدها هـول المنظـر، وأفـواه ظلت فاغرة، حين ألقى أحدهم (بطانية) فوقها. أنيـن يخـرج مـن كومة فحم، ضاعـت ملامحها، دقـات قلب متباطئة ونفس يضيق، يهرب، يتقطع، همهمات، نشيج مر، بقايا عينين فتحتا لحظة، شبح ابتسامة تأوه على طرف ثقب كان يوما فماً. تشهق بعمق

وصعوبة نفسها الأخير، فيتدلى رأسها الظاهر من حواف البطانية، التي لفت جسدها المهترئ.

مـر زمـن طويـل علـى ذكـرى تلـك الليلـة الوحشـية، ولا تزال أنفاسها مغمغمة برائحة الدخان والشواء. كنت حينها في الثانية عشرة، والشـاهدة علـى براعـم الحب التي نمت في قلبهـا، عندما قدمت لها بنفسي أول مظروف طافح بمعسول الكلام، وقلب أصابه لحظ عينيها السوداوين الواسعتين. لم تطلعني على تفاصيل الرسالة، لكني قرأتها من شعاع الفرح الذي لون عينيها، وصبغ وجنتيها.

ابـن الجيـران صـار ولعها وقبلة قلبها، وصرت الرسـول بينهما، والمرافق لها أحيانا حين تسنح الفرصة بلقاء سريع عند طرف طريق منزو بعيد فقد أهليته لا يتذكره إلا القليلون.

مضـت الأيـام مسـرعة تحـت ظلال ذلـك الحب الـذي تعاهدا لأجلـه، قاطعيـن علـى نفسـيهما المواثيق والنـذور، وحين حان أجل الإيفاء، لم تتردد سـلوى عن تهديد أمها بقتل نفسـها إذا ما أجبروها على الزواج من ابن عمها الذي أنهى دراسته تواً.

لم تجد عند أمها أذناً صاغية، فأعلمت الخطيب برفضها الزواج منـه، آملـة أن يحررهـا مـن قيد ووعود الأهل (بنـت العم لابن العم). لكنـه لـم يكـن شـجاعاً لتتقبـل رجولته مثل هذا الرفـض، وأصر على الزواج منها نكاية.

استمرت ترفض باكية تتوسل أهلها في العدول عن ذلك الزواج، الذي لن تقدم عليه وإن كلفها حياتها.

منذ ذلك الحين، تسلل الرعب إلى قلبـي من الحب وناره حين تسـتعر، ودعوت الله كثيراً أن يجنبني لظاه وآلامه، وحين خطبني ابن

عمـي وافقـت علـى الفـور موقنة أن الحب سـباق للتعاسـة، ومكابدة للشقاء لن أقحم نفسي فيها، يكفيني أني كنت يوماً شاهدة قاصرة لم يؤخذ بأقوالها.

استطعت أن أتجنبه أنا، إلا أنه ألقى بشروره وتعويذته السحرية على بيتي وحين لمحته في عينيك، خشيت عليك منه، أملت أن يبطل سـحره مع الوقت، أن يفك النسـيان طلاسـمه فتتحررين منه، ظننت أن العمل والزواج سيوقفان فلول زحفه. لقد راقبته يا ابنتي عن كثب طوال هذه السنوات، كيف نما وتفرعت أغصانه الكبيرة فيك! الدعاء وحـده كان منشـاري لقـص تلـك الأغصـان وتشـذيبها. ليـال كثيرة، صحوت فيها مذعورة، أركض نحوك إلى فراشـك، اسـتطلع حالك، أسمع أنين أنفاسك حامدة شاكرة، طاردة كوابيسي بالمعوذات.

آه يا هناء كم خشـيت عليك حينها من مصير سـلوى، وشـبحها الملتهب يطاردني ويقطع عليّ أنفاسي.

تأوّهت أمي وقد شـردت بها الذكريات، ثم أكملت بنبرة هادئة مستسلمة:

لقـد كبـرت الآن بنيتـي، أفعلـي ما ترينه مناسـباً لـك، لن اضغط عليك بعد هذا العمر. كلي ثقة بما قسمه الله واجتباه.

لـم تفاتحنـي أمي بموضوع مثل هـذا بعد ذلك الحديث، وحتى عندمـا جـاء مـرة أخرى طالباً يد هبة لابنـه، بقيت صامتة، فقد وصلها جوابـي من تعابير وجهي ومن رد فعلي، فنأت بنفسها عن أي جدال أو نقـاش، ولـم يصـدر عنهـا أي تعليق سـوى (البنت لا تزال صغيرة، وأنـت أدرى بمصلحـة ابنتـك). نعم يا أمي فعـلا كانت هناك مصلحة من هذا الزواج، لكن ليست لابنتي.

آه... إن هذا الرجل لن ييأس بسـهولة، جشـعه أكبر من كرامته، وحيلـه كثيـرة، بالأمس القريب عرض عليّ أن يسـتأجر الدكان، كنت واثقة، أنه لن يعدم الوسيلة. غيابك يا صالح، حرك الأطماع وأخرجها من عقالها. لم أكن أظن أنك سـتترك فراغاً بهذا الحجم، وأيقنت أن ظل رجل كفيل بإخراس كل الأفواه. رحمة الله عليك. وفتحت صنبور العين.

أووووه... أخيراً أمسكت بطرف الشارع الرئيس، مقتفية أثر خوض أقدامهم الصغيرة في مياه المطر في طريقهم إلى المدرسة. يا الله... وأين سأذهب أنا؟ ما من طريق يتسع لحيرتي وشقائي، الألم الذي حز قلبي دون أي شفقة أو رحمة حين رنّ هاتفي النقال، ولم أتلقَّ سوى بضع كلمات متوترة غير واضحة: السلام عليكم... أحضري حالاً... سعيد ليس بخير.

وانقطع الصوت، وأنا أردد مكررة دون وعي آلووو... آلووو، لم ألق جواباً، فلملمت هواجسي وظنوني، مستقلة أول عجلة أجرة إلى العمارة.

مرت الساعتان كدهر من العمر، طريقٌ مكفهرٌ، عبدت سماءه غيوم سوداء كثيفة حجبت النور والرؤية بمطر غزير، تسابق ذراعا نافذة السيارة في طرده تحت أنظار وتململ السائق، معبراً عن ندمه طوال الطريق على الخروج في مثل هذا الطقس، متباطئاً في قيادته لا سيما بعد أن أصبح الطريق زلقاً، ولمحنا حادث اصطدام وانقلاب إحدى السيارات بعيداً عن مسار الطريق.

حالما ولجت من باب بيتهم الذي كان مشرعاً على نحو غير طبيعي، تسللت ولولة النساء ونشيجهن إلى سمعي، فأدركت أن خطباً عظيماً قد أصاب أحد الولدين، ركبتاي لم تعودا تطيقان

ثقلـي، ارتجفـت أوصالـي، خطواتي لا تسـتجيب متخشـبة، فاتكأت على الحائط ألتقط أنفاسـي وحرارة الدم تشـتعل في عروق صدغي. استقبلتني إحدى زوجات الأخوال بالبكاء والنحيب، وهي تردد (راح الولد... راح سعيد). تعثرت، لفت بـي الأرض، سقطت على وجهي، فتلقفتني من ذراعي وكتفي بعض النسوة. ومن بين الكلمات المنتحبة المغمسـة بالدمـوع عرفـت أنـه كان في طريقه إلى المدرسـة مع أخيه مسـعود وباقي الأولاد، حين اجتازهم أحدهم بسـيارته مسرعاً فصدم جسمه النحيل الصغير، وولى هارباً. نقله بعض المارة إلى المستشفى، لكن روحه الرقيقة استعجلت في الصعود، لتضيف إلى أحزان روحي وجروحها جرحاً آخر سيئن إلى جانب جرح أبيه.

زاد خوفـي وقلقـي علـى مسـعود الذي بقي وحيـداً دون توأمه، وبانت عليه علامات الوحدة والبؤس، الذي لم أستطع انتشاله منهما، رغم تكثيفي لعدد مرات زيارته والتي صارت أسبوعياً تقريباً.

تمنيـت لـو أن بإمكانـي اصطحابـه معي إلى البيت ليكبر وسـط أطفالي وأمام عينيّ حتى يهدأ بالي، إلا أن معارضة أخواله لهذه الفكرة التي نوهت بها أكثر من مرة ألجمت صهيلها، فاستسلمت مذعنة داعية بكل حرقة لا جعل الله حظاً في معاش كل من فرق شـملكم وشـتت جمعكم.

لم يبقَ من مسـعود إلا اسـمه بعد ذهاب سـبب سـعادته، وباءت كل محاولاتي في الترويح عن قلبه الصغير، وقلبـي الصدئ بالفشل، إذ لم يعد لنزهاتنا وتسـكعنا في أسـواق مدينة العمارة أي طعم دون سعيد، لا تعمل المروحة بذراعين، مهما حاولت، ستشكو دوماً فقدان ذراعها الثالثة.

كلانـا لـم يتجـاوز فقد سـعيد، خفة ظلـه ونكاتـه الماكرة بعض الشيء على معلميه وزوجات أخواله وأولادهم، لم يترك أحداً منهم إلا وقلد حركاته أو صوته، كان يأمل أن يصبح ممثلاً حين يكبر، فكنا أنا ومسعود نسخر منه ومن هذه الأمنية الصبيانية.

ولـدي الغالـي لـم تسـعفك الحيـاة بسـنوات أكثـر حتـى تحقق رغبتك، مثلما تحققت أمنية ذلك الملعون.

لـن أنسـى ذلك الوجـه، وتينك العينين الصغيرتين المرتسـمتين كنقطتين سوداوين في أعلى وجه كمثري ممتلئ تدلى ذقنه، وضاقت جبهته بشـعر رأس أسـود كثيف، وتلك الشـامة البارزة نوعاً ما أعلى حاجبه الأيمن وكأنها نقطته الدالة (أبو شامة).

لـن أنسـى ذلـك الكبريـاء الـذي يحملـه وقوفه بيـن رجاله، زيه الزيتونـي المكـوي بعنايـة فائقـة، حذاءه الأسـود اللامـع، نبرة صوته المتعاليـة الفظـة وهـو يأمرهـم بالقبض علـى كل أفراد بيت أم رياض، ويمنع النساء حتى من تغيير ملابسهن. لن أنسى نظراته المتهكمة وهي تجول في الجوار حين أعطى الأوامر بهدم البيت وتسويته بالأرض.

كنـت أروم الخـروج مـن صالة التوليد بعد انتهاء مناوبتي، وعند الباب لمحت جانباً من وجهه، لم أكن متأكدة من هويته، فبقيت واقفة عنـد البـاب أكذب حدسـي وأشـحذ الذاكرة بانتظـار أن يقترب أكثر، فقـد كان يجـوب الـرواق قلق الخطـى متوتراً، وحيـن اقترب، أيقنت أن حدسي في محله، تغير شكله قليلاً بعد أن دب الشيب في رأسه، وخطت التجاعيد آثارها حول عينيه وجبهته، لكن الشامة ظلت على حالهـا ترقـد هادئـة علـى حاجب كـث تهدل فوق إطـار نظارة فضي. وقعـت عيناي مندهشـة على مسـبحته السـوداء وخرزاتهـا الذائبة بين

أصابـع يـده فـي حركة لاشـعورية أتقنها على ما يبـدو مؤخراً، وحين سألني بنبرة مصطنعة مهذبة، كانت عيناي لا تزالان تلاحقان أصابعه، فلـم أصـغ بوضـوح إلـى ما قاله، عندها سـألني مرة أخـرى عن حال زوجته، بعد أن أعطاني اسمها.

عـاودت أدراجـي إلـى الصالة تـارة أخرى، أبحـث عن زوجته، كانـت لاتـزال فـي بدايـة طلقهـا وأمامها سـاعة أو أكثـر، وعند الباب وجدتـه واقفـاً فأخبرته مطمئنة. كنت أنوي الخروج إلا أنه اسـتوقفني مرة أخرى، ألح في السـؤال، وأسـهب في حديث جر نفسـه إليه دون أن أنبـس ببنـت شـفة، كنـت أتفحصه، أتمعن فـي تقاطيع وجهه، نبرة صوتـه، انحنـاء كتفـه، ذقنه الطافحـة على ياقة قميصه، شـعرت بتوتر أعصابه وارتعاشة يديه وتزايد وتيرة ذلك حين ينفعل في الكلام. ومنه أحسسـت بمـدى تشـوقه ولهفتـه للصبـي الذي تأخر قدومه، فاسـحاً الطريق لست بنات قبله، عبر عن قلقه وخوفه على صحة الجنين وأمه التي جازفت بصحتها لأجل هذا الصبـي، بل لأجل إرضاء رجولة لا تكتمل إلا بولي عهد ذكر، وأنوثة تبقى ناقصة مهددة، تفتك بها كثرة اللغط والتأنيب.

انتظرت اللحظة المناسـبة كي أسـتأذنه بالانصراف، فطلب مني بشـيء مـن الخجـل أن أبقى قرب زوجته، وأوافيـه بأخبارها. ترددت في أول الأمر، إلا أنه بادرني بعرض جزيل يناسب غبطته بقدوم وليه.

عـدت إلـى الصالة، وجلسـت على مقربة من زوجته وأمسـكت بكفهـا المعرورقـة النحيفـة فـي حركـة لاشـعورية لأتحسـس حرارة جسـدها وأهبهـا شـيئاً مـن الأمـان والـدفء الـذي تحتاجـه في تلك الظـروف، كانـت متعبـة للغاية، جف مـاء وجهها وأصفر لونها وبانت

التجاعيد حول عينيها وفمها بوضوح، آلام الطلق والولادة لم تعد مناسبة لطاقتها وقدرة جسدها النحيل الذي هده رسوخ إيمانها وأملها بإنجاب صبي، حتى ولو بعد حين.

أشفقت عليها، على تكورها على عظامها المرتجفة وبطنها المتكئة على الفراش، فساعدتها وسحبت إليها الغطاء. شكرتني بكلمات مقتضبة خرجت حروفها من تحت أضراس مرتعشة، شعرت بالأسى على وضعها، على ما تكابده من ألم وخوف في سبيل صبي، يا للنساء ويا لحماقتهن، ما عساه يصنع الصبي لها!؟

حاولت أن أخفف عنها وإشغالها عن الألم بأحاديث مختلفة، وحين حان وقت الولادة كنت معها، فتشجعت وعضت على ضعفها ووجعها، متأملة خيراً.

خرج مزرقاً ضعيفاً ومرهقاً، ولا أعلم من أين تبادرت إلى عقلي تلك الفكرة، ذلك السخط الذي تفجر في نفسي وروحي، وأنا أزف إليه خبر سلامتهما، أي شيطان وسوس لي؟ لا ليس الشيطان، هي ابتسامته... الابتسامة نفسها... نفسها، تلك التي تحلقت على وجهه وهو يسب ويلعن رياض وعائلته، تلك ابتسامة نصره، أرعبني الخاطر، لكنه تملكني، أما آن لي أن أشعر بالزهو والفخر، وأنا أراه كسيراً خائب الأمل. استولت الرغبة على تلافيف عقلي، سيطر على روحي صوت قوي، عميق... هيا، هيا... ماذا تنتظرين؟ إنها فرصتك للأخذ بثأرهم، بثأر ولدي سعيد الذي رحل يتيماً، بثأر مسعود وتشتته، بثأر قلبي الذي ينبض حزناً كل يوم على مرأى أطلال بيتهم الموحش، وذكريات معتقة على بقايا الجدران. هيا... هيا ما بالك؟ ماذا تنتظرين؟ هي فرصتك للثأر، لن تتكرر مثل هكذا فرصة، فاغتنميها... اقطفي له

من ثمار الألم والعذاب، حان له أن يتذوقها، لا تشفقي عليه... هيا... هيا. فقادتني أقدامي إلى ردهة الأطفال الخدج، حيث أخذته إحدى الممرضات لأجل إنعاشه واسترداد عافيته. اقتربت منه، كان المكان يرقد هادئاً بأسرته البلاستيكية الشفافة الصغيرة، أجساد ضئيلة، مشققة الجلد باهتة، نبض يعلو ويهبط، أسلاك مربوطة إلى أيدٍ ناعمة هشة رخوة، وجوه لا يتعدى قطرها عشرة سنتمترات، ذابلة، دقيقة الملامح لكن بريئة.

أعمل في هذه المستشفى منذ سنوات عديدة، ولم يدر في خلدي أن أتفقد هذه الغرفة أو أطل على ساكنيها الصغار، اكتفيت دوماً أن ألمح على عجل في طريقي تلك الأسرة من خلال زجاج النوافذ، التي تبقى أحياناً مشرعة لأشعة الشمس، لم أحاول الاقتراب من تلك الكائنات ولو مرة واحدة.

اقشعر بدني، وأنا أتمعن فيهم، في أجساد حمراء كقطعة لحم، في السر الذي يحملهم على البقاء رغم ضعفهم وقلة حيلتهم، سبحان الله... سبحان الله، يهب سره لأضعف خلقه. أسرني منظرهم، حركاتهم البطيئة، طريقة نومهم المتكورة، عيونهم المغمضة على حلم أن يكبروا وتكتمل وظائف أجسامهم. سبحان الله... كل شيء في هذه الردهة يُكبر بعظمة الخالق العظيم، وبضعف مخلوقاته.

اقتربت رويداً رويداً من غايتي، بعد أن بحثت عنه بين الأسماء المعلقة في سوار حول معاصمهم الدقيقة، كان يتثاءب، وجهه مزرق، تقاوم رئتاه الصغيرتان الاختناق، وزنه لا يتجاوز كيلو غرامين، يشبه الآخرين لا فرق بينهم سوى أسمائهم، كالملائكة يرقدون في نوم عميق.

وقفت أمامه أتأمله، أتأمل قوته، وأسخر من ضعفي وبلادة فكرتي. ماذا تنتظرين يا هناء؟ خذي بثأرك، الأمر بسيط، حركة سهلة، ثوان معدودة وينتهي كل شيء، تصعد روحه إلى السماء، ثوان معدودة فقط، أغلقي قابس جهاز الأوكسجين... لن يستغرق الأمر، رئتاه ضعيفتان لن تقاوما كثيراً... ماذا تنتظرين؟ لا أحد سيشك بالأمر، ثوان قليلة لا أكثر، وسيبدو الأمر طبيعياً للغاية، هناء ماذا تنتظرين؟... هيا... أغلقي القابس.

ارتجفت يداي، تشنجت خطاي، ابتلعت ريقي مرات، وخز في مؤخرة رأسي وتسارع في النبض. توقف الزمن، شعرت بثقل الخواء وهو يملأ روحي، يسير عبر أوردتي وشراييني، وضعت يدي على القابس، ضغطة واحدة... هيا تشجعي... هيا. خدار ألم بي، تهيأت لوهلة أنه سعيد، اختلطت الوجوه، ما عدت أميز بينها، فرفعت يدي مذعورة من على القابس وفررت مسرعة دون أن أصغي لها، تركتها خلفي، فلتكتوِ بنار حقدها، أما أنا فلا، لن أستطيع... لن أستطيع أن أزهق روحاً بريئة بإثم غيرها... تعالي، ارجعي، لا... لا، أغفر لي يا ربي، لست سيئة لهذا الحد، ما زلت أطمع بصفحك ومغفرتك إلهي، وانتابتني نوبة بكاء شديد مما كنت عازمة عليه، خشيت من نفسي، من حقدها، من ثأرها.

كانت أجواء تلك الردهة ربانية، تبعث في النفس شعوراً بالراحة والاطمئنان، وسط قلوب صغيرة نقية لم يلامسها بعد غبار الحياة وصخبها.

عدت ثانية إلى صالة الولادة، حيث استلقت الأم المرهقة على أحد الأسرة. كانت فرحتها لا توصف وأنا أخبرها بأن الرضيع بخير،

وما هي إلا ليلة واحدة يقضيها في الحضانة. ومن شدة فرحها غمرتني بين ذراعيها، وهي تقول مرددة:

– كان وجهك خيراً عليّ، لقد أحسست بذلك.

– الحمد لله على سلامتك.

اغرورقت عيناها بدموع الفرح وهي تقول:

– لن أنسى صنيعك معي.

وددت لو تنشق بـي الأرض، خجلت من نفسي، وما كنت أنوي فعله، لكني أجبتها:

– اشكري الله وحده سيدتي.

– ونعمى بالله... ولن أنسى معروفك معي.

كتبت لي رقم هاتفها وطلبت مني الاحتفاظ به لو احتجتها يوماً. من طريقة حديثها الواثق، أيقنت أن لهم نفوذاً قوياً في السـلطة. ولِمَ أستغرب ذلك، حرباء لا تنفك تغير لون جلدها، وآه يا وطن، كم أنت طافح بهذا الصنف من البشر!

لا أعلم أي منصب في السلطة قد أمسك بزمامه، هو لا يُخشى عليه من شيء، أبدل بزته الزيتونية والمسدس بجلباب الدين والتقوى بعد أن تعلق بذيل واحد من الأحزاب. ما لي أنا وهذا الحديث المر! لأدع هموم الوطن للوطن، تكفيني همومي.

حفظت رقم جوالها بهاتفي النقال، وسألتها عن كنيتها أو اسمها فقالت بعد تردد:

– ماذا نسميه يا ترى؟

– عفواً... من تقصدين؟

فضحكت، وهي تمسك أسفل بطنها قائلة:

– بالطبع، أقصد صغيري الحبيب.

– الاسم الذي يعجبك حتماً.

– لا بل الاسم الذي ستختارينه أنت.

فبقيت صامتة، لا أعرف ماذا أقول لها، أخجلتني طيبتها وعفوية طبعها، ترغب أن أطلق أنا عليه اسماً، يا الله... ماذا صنعت؟ كيف يطلق القاتل على ضحيته اسماً، بالكاد استطعت الفكاك من وسوسة عقلي، وفداحة ما كنت أنوي فعله.

– أيًن شرد فكرك؟... أنا أرغب أن تسميه أنت.

بشتى الذرائع والحجج عارضت رغبتها، إلا أنها أصرت على ذلك، فما كان مني إلا أن أقول دون وعي (سعيد).

فقالت فرحة مبتهجة:

– إذاً سجلي عندك، أم سعيد. سعيد... اسم جميل.

واستمرت تهمس بالاسم إلى نفسها، مثل درس تود حفظه عن ظهر غيب. ودعتها متمنية السعادة لها ولسعيد. وفي طريق خروجي التقيته ثانية، حاولت تحاشيه، لكنه اعترض طريقي وقد تهلّل وجهه فرحاً، ومد يده نحو جيبه مستلاً رزمة من المال بشرى للمولود الجديد. مانعت بشدة أخذ المال منه، رغم إصراره ودهشته الكبيرة من رفضي لذلك، فتركته وسرت عنه إلى بيتي.

شعرت أني بحاجة لاستنشاق كل الهواء في الخارج، سرت على غير هدى وشعور، كان همي الوحيد هو أن أنفس كل مشاعري المكبوتة، وطاقتي السلبية.

ذلك اليوم كدت أفقد القليل القليل الذي تبقى من إنسانيتي، وأصبح قاتلة، أي عار كدت أقترفه على هاتين اليدين (ومدت يديها

أمـام عينيهـا، تمعـن النظـر فيهمـا متسـائلة: أمعقـول؟!... أمعقول؟! وحمـدت الله علـى عقـل كاد يفلـت منهـا، عائـذة بالله من الشـيطان، مسـتغفرة، وانتابتهـا موجـة بـكاء ودمـوع غزيـرة، وهي تـردد بمرارة: سـامحوني أرجوكم، سـامحوني... لم أسـتطع أن أثأر لكم، سامحني ولدي الحبيب سعيد، لم أقدر أن أزهق روحاً صغيرة بريئة، أنت من أنقذه.

رياض... رياض هل تسمعني؟ ربما أنت الوحيد القادر على... لا... لا أظنك ستغفر لي عيوبـي وأخطائي، رحلت مبكراً، لم أطمع بوصلك، واكتفيت فقط أن ألمح ظلك أحياناً، وأتصيد صدى صوتك يأتـي متسـللاً مـن نافـذة بيتكم، أوه يا رياض كم أصبحت شـقية حين رحلت، يلازمني وجع فقدك كل يوم، أصحو من النوم على ابتسامتك، ترافقنـي طريـق الذهاب والإياب إلى المستشـفى. خط الشـيب صور مدائنـه الخربـة على رأسـي، وحفرت التجاعيـد مواضع لا تزول عن وجهي، وظلك لا يبارح سنوات عمري.

مسكين صالح إن كان قد لمحه في عيني، حاولت جهدي، مشيت عكـس تيـار نهـر ذاكرتـي، حاولت أن أحب بعـدك يا رياض، إلا أني أدركت أن قلبـي مريض ولا يخفق إلا لأجلك، فسامحوني جميعاً... لقد حاولت. وعذراً يا صالح إن اكتفيت بك بوصلة نحو طريق الحق والصـواب، حتـى وإن لـم أتبع الكثير من مواعظك، واعتبرتك حالماً يقبع خارج نطاق تغطية الحياة... الحياة التي أدركتك برصاصة.

عاودني شـعور القلق والخشـية من المستقبل عندما توفي، حتى أنـت يا صالـح قـد خذلتني، ولـم تكمل معي الرحلة، ملقيـاً بمتاعبها عليّ أنا وحدي.

أَجِد صعوبة في التوفيق بين دور الأب الذي لعبته على أحسن وجه، ودور الأم الذي لا أَجِد الوقت الكافي له، أو لربما الرغبة الصادقة تماماً في أخذه. وجودك قربي أزاح عن كاهل عقلي الكثير من المنغصات.

أوه يا صالح ماذا عساني أقول لك اليوم، هل أعترف لك أني قد وجدت فيك الأخ لا الزوج أو الحبيب، لا أعلم إن كان يصح لي أن أقول ذلك الآن، لكن هي الحقيقة. اقتربت منك بداعي الأخ، كان شعوراً جيداً، وقد تعايشت معه، وتكيفت كذلك النفس عليه، وإن غمرني في بعض الأحيان الشعور بالأسى والذنب على هذه المشاعر الأخوية، التي لم أستطع أن أرتقي بسقفها إلى أبعد من ذلك. فألقيت اللوم عليه مرة، وعليّ مرات، هو لم يحاول اختراق حصوني، واكتفى بالعيش على ضفافي، أو ربما حاول وصدم بالجواب. وأخيراً استطعنا النجاة معاً في العيش على اليابسة، وتركنا أمر الإبحار والغوص في نفس الآخر.

ابتسمت خجلة مما جال في خاطرها، لا الوقت ولا المكان المناسب، لتقدح مثل هذه الأفكار، هذه فعلاً شطحات العقل، ما بالك يا هناء؟! انظري... السماء مثقلة بغيوم كالحة رمادية، تنذر بزخة مطر أخرى قريبة، الهواء رطب يثقل الصدر ويربك التنفس، المكان موحش، لا تزال قطرات المطر تنزل سوداء من حافات وسقوف الدكاكين الراقدة بصمت تحت وطأة الزمن متهالكة، تفشي أسراراً فقدت تشويقها وبريق خصوصيتها، لا تملك إلا أن تصطف على طول الشارع بعضها يؤازر هزال بعض، تمر أغلب الوجوه عليها نكدة مستاءة، يضيق عقلها توجساً وخشية من مياه لامست عتبة بابه،

وبعضها دخل دون استئذان.

ثيابكِ ترشح ماءً وقهراً، ما عساه يفعل؟ قطعة لحم طازجة! تثير رائحتها لعاب الكلاب وفضول القطط، لماذا يا هناء تقترفين الجريمة نفسها؟ كيف بخلت عليه حتى بدور الأيتام، أو أبواب الجوامع؟ تقترفين الخطأ ذاته بدم بارد، ووجدان ميت، دققت المسمار الأخير في نعشه اليوم، غلظة قلبك وقسوته انعكست لوناً متجهماً مكفهراً اصطبغت به قسمات وجهك، ألا تلاحظين نفسك في المرآة؟ كل علاجات البشرة ومضادات التجاعيد اللاتي نصحت بها صديقاتك لن تنفع لإخفاء ما نحته الزمان على وجهك، فلتبحثي أنت بنفسك عن دواء يغسل القلب من سواده، ويرتق بعضاً من نياطه الممزقة، بعد أن أغلقت بوجهه نافذة الأمل، التي حسب أنه قادر على إصلاح كسرها.

التقيت ذلك الصباح في المستشفى بعدد من الوجوه التي قفزت الابتسامة إليها حال مروري بها، ابتسامة في غير محلها تشي بمعان تختلف عن الابتسامات المعهودة والمرسومة بطريقة ميكانيكية. لم أصغ إلى همس ظنوني، فلا يزال الوقت مبكراً على استيقاظها، واستأنفت طريقي اليومي نحو صالة التوليد، وهناك أيضاً لمحت ابتسامة خبيثة تلمع في عيون زميلاتي، ودبيب همس يصل إلى أذني ولا أسمعه. شككت بالأمر، فتوجهت مباشرة إلى المرآة الصغيرة المعلقة على ركن الجدار، أمعنت النظر، اقتربت منها أكثر، الكحل يستقر في موضعه جيداً فوق عيني، وهذا ما أجيد وضعه وأنا مغمضة العينين، تفحصت فمي، لا شيء عالق بأسناني، استدرت حول نفسي، لا ضير بهندام أظهر به كل يوم، لم أفرط في الوزن ولا في ترهل الكرش. ما بالهن اليوم؟ كل شيء طبيعي إلا ابتساماتهن، فقررت تجاهلها، وانشغلت بعملي الروتيني بعد أن أقنعت هواجسي بما تحصل عليه اليوم وأنت لاهث خلفه سيأتيك في الغد زاحفاً، وقبل أن يأتي الغد، اقتربت مني إحداهن في ساعة الدوام الأخيرة، حيث فرغت من تسجيل بيانات المواليد الجدد في سجلات ووثائق المستشفى الرسمية، بتردد وابتسامة تلمظت معها عيناها وارتفع حاجباها قالت:

– أما طرق مسمعك اليوم شيء!؟

بفتور يشوبه التعب وعدم الاهتمام أجبتها:

- لم أعد آبه للإشاعات، وقتي مزدحم بأمور أهم من فلان يقول وفلانة فعلت.
- كلا تمهلي... تمهلي عزيزتي، ليست بشائعة.

فكرت بتركها، بعد أن تفحصت ساعة يدي، لم يبقَ على انتهاء الدوام إلا ثلث ساعة فقلت لها:

- ومع ذلك، لا أَجِد في نفسي رغبة بسماع أي خبر.

ونهضت من على الكرسي، برفقة حقيبتي وعباءتي، فاستوقفتني بكلمات موجزة سريعة قائلة:

- إنه الدكتور حيدر... دكتور حيدر خطيب...

لم تكد تكمل عبارتها، وأكملتها أنا دهشة بانت جلية على قسمات وجهي، الذي تحسسته بشكل لاإرادي، ممررة بيدي على خطوط رفيعة استقرت على زاويتي عينيّ وفمي.

استأنفت كلامها بحماس أكبر قائلة:

- لقد لمحه بعضهم عند غرفة المدير، إذ قيل أنه يسوي التفاصيل الخاصة بنقله ومباشرته للعمل ثانية في هذا المستشفى.

قلت بنبرة فاترة، لا تناسب مقدار دهشتي:

- كتب الله له التوفيق.

فردت بابتسامة ماكرة:

- عسى الله أن يوفق الجميع... إلا أني سمعتهم يتساءلون عن سر اختياره لهذا المستشفى بالذات؟!

لم ترق لي نبرة صوتها وما تشي به من معان ضمنية، فأجبتها:

- وما السر برأيهم؟... قوم ثرثارون، من الطبيعي للغاية أن يرجع الدكتور حيدر إلى هنا، فهذا المستشفى يناسب اختصاصه.
- سمعت أنه قد استأجر شقة قريبة من هنا، أما كان من الأجدى به أن يرجع إلى الناصرية! حيث يكمن أهله ومسقط رأسه؟

للحق دهشت من فضول بعض البشر ودس أنوفهم في خصوصيات الآخرين، فأجبتها على عجالة من أمري، وأنا أنوي الذهاب:

- دعوا الخلق للخالق.

وبرحتها يشيع خطاي رنين ضحكتها ولسعات لمزها، متذمرة من غلوهم وإسهابهم في التحليل والتفسير.

لا أكذب، أنا الأخرى، تساءلت عن سر عودته إلى البصرة، بعد أن تركها منذ أكثر من عشرة أعوام. ليست هذه المرة الأولى التي تصلني بها أخباره، فقبل ما يناهز السنة، حدثتني عنه إحدى الزميلات التي التقته صدفة في أحد مستشفيات بغداد لأجل العلاج، مثمنة حسن تقديره لسنين العِشرة، باذلاً ما في وسعه لأجل مساعدتها. أخبرتني كذلك أنه قد استطلع أخبار أغلب المنتسبين القدامى وسأل عنهم، ولم يفته بالطبع التحري عن أخباري، التي قدمتها له على طبق من ذهب حين سألها، مبدياً غاية تأثره إلى ما آلت إليه ظروفي، لا سيما بعد ترملي. يا لثرثرة النساء! في المقابل هي لم تعرف عن أخباره إلا النزر اليسير، حتى أنها لم تعرف سبب عودته من ليبيا.

أكملت مسيري وحدي، بعد أن أبعدت شبحه عني، تاركة إياه

عنـد عتبـة البـاب، التي تسـلل منها إليّ ليلاً، حينهـا بحثت في هاتفي الخليوي عن تلك الرسالة الأثيرة التي قمت بأرشفتها، دون أن أرجع إليهـا منـذ سـنوات مضت، وفعلاً وجدتها بـاردة وحيدة، نضب زيت كلماتها، فاستعنت بنظارتي لأقرأ حروفها.

الغالية هناء الخصيب

بعد التحية؛

أشقاني التردد كثيراً في الكتابة إليك، ففي كل مرة أمحو ما أكتبه، وأعـدل عـن إزعاجك بحياتي وشـؤوني الخاصة، ولا أعرف الآن إن كنت سأملك الشجاعة للأخير وأرسلها لك.

أعلـم أن اعتـذاري منـك متأخر للغاية، وأن كلمة آسـف لا ترتق نسـيج الثقة والتفاهم، الذي افتقدته بعدك. إلا أني يا هناء قد أسـفت على حالي كل يوم، عندما فرطت بك، واثقاً من قدرتي على تعويضك بأخـرى، هكـذا خُيـل لـي حين تعرفـت إلى طبيبة عراقيـة تعمل معي فـي المستشـفى نفسـه، تقربنـا من بعض بحثاً عـن الوطن الذي تركناه خلفنا، فجمعنا الإحسـاس المرهق بالغربة، وكل تداعياته في النفس، وما يكرسه من شعور موغل بالحنين، الحنين لأتفه الأمور وأبسطها. معها خف ذلك الإحساس، وصرت أتداول اللهجة العراقية معها بعد أن بقيت ردحاً من الزمن حبيسة الحنجرة. لا أريد أن أبرر خطأي بقدر مـا وددت أن تصغـي لـي، فالبوح عما يجول في خاطرنا وتعرية لحاء مشاعرنا لا يكون سهلاً إلا أمام من نحب.

اسـتطاعت أن تسـرقني مـن غربتـي، مـن حنيـن صـار وجعـاً لا يبـارح أعلى معدتي، كانت البلسـم، ومضـاد الاكتئاب، الذي تعاطيته

بشـراهة حتى أدمنته، فأمسـت رفيقتي في المستشـفى والبيت معاً. لن أكـون صادقـاً إذا أنكرت سـعادة ودفء الأشـهر الأولـى من زواجنا، حتى حسبت أني في الجنة، لكن مصير آدم وقدره كان دوماً مجبولاً بالحياة الدنيا، وما تجره عليه من مشاق وصعوبات بدأت بحمل أفراح بابننا الأول، وتفاقمت مع المولود الثاني، حين أغدقت كل مشاعرها على الأمومة ولم يبق نزر من حب تهبه لي، أصبح الطفلان شـغفها، فأسرفت في تدليلهما وفي إهمالي. قد تقولين في سرك، أنه يغار من طفليه، من يدري؟ ربما هو كذلك.

لـم أوفـر مجهـوداً فـي تنبيههـا من مغبـة أن تكون أماً مهووسـة وزوجة مهملة، ويبدو أني مع الوقت اعتدت على إهمالها بانشـغالي في ساعات العمل الطويلة في المستشفى والعيادة، صار البيت ملاذاً للنوم وحسب بعد أن تزاحمت في نفسي الضغائن تجاهها، وتراكمت المشاكل فوق بعض، فأصبح ترك الأمور على حالها أسهل بكثير مما قد يثيره محاولة حلها أو فك عقدها التي ازدادت مع الوقت فتقاذفنا الاتهامـات بيننـا، وتناوبنـا على أيام من الخصـام، ونوبات البكاء وما يرافقها من صداع وملامة وتأنيب، لأصبح وحدي المذنب والمتطلب غيـر المراعي. وحيث سـئمت مـن لعب هذا الدور، بدأت بالتعويض خارج البيت عما فقدته في داخله، فتعددت علاقاتي، وبحكم مهنتي تسنى لي التعرف إلى نساء مختلفات، وأجيال مختلفة تلتقي جميعها فـي هـدف واحـد ألا وهـو الحـب الممنـوع. وأظنني قـد أدمنت هذا النوع منه، واعتبرت إهمال زوجتي لي كان بادرة الخير الوحيدة التي صدرت منها، موبخاً نفسي على غبائي وقلة خبرتي.

يبـدو أن نـار علاقاتـي المتقدة قد وصل دخانهـا أخيراً إلى أنف

زوجتي من إحدى الممرضات اللواتي بيّتن غيظهن، فانتقمت هي للجميع، مضحية بوظيفتها في عيادة زوجتي حين أخبرتها بتلاعبي بمشاعرها هي وأخريات. وكعادة الرجال في مثل هكذا مواقف، تنصلت من كل ما أشيع حولي متهماً من أخبرتها بالحسد والغيرة، وبأغلظ الأيمان أقسمت لها ببراءتي، التي ظلت على المحك، تحت أنظارها ومراقبتها المستمرة، لا بدافع حبها واهتمامها بزوجها بل لأجل كرامتها والحفاظ على وضعها الاجتماعي الذي طاله اللغط. فشددت الخناق على تحركاتي بالسؤال والجواب المستمرين، وكأنها استيقظت تواً على وجود زوج قربها، فاستفحلت الخلافات بيننا إلى الحد الذي قضى بمبيتي خارج البيت عدة أيام. لا أخفي عليك أن هذا الأمر قد راق لي، ووجدت فيه السبيل إلى الخروج عن طوق الزواج الخانق، فكانت عيادتي الملاذ لمغامرات ولفحولة نهمة خرجت عن عقالها، حين ضبطتني متلبساً وبالجرم المشهود، فما كان منها إلا أن تطلب الطلاق، لتنقذ كرامتها المهدورة، وبعضاً من ماء الوجه أمام الناس.

لم أمانع برغبتها في الانفصال ولو قليلاً، معتبراً إياه الحل الأمثل لمرض مستعص لا ينفع معه إلا البتر. فَطَال البتر وظيفتي بعد عدة شهور، ولم يُجدد التعاقد معي. استطاع والد أفراح طليقتي بعلاقاته الواسعة والمتينة على تشويه سمعتي المهنية بين مدراء المستشفيات الحكومية والأهلية على السواء، الأمر الذي صعب عليّ الحصول على وظيفة في مستشفيات أخرى، معتمداً على دخل العيادة، التي بدأ يتناقص عدد مرضاها تدريجياً للسبب نفسه. لم أكن أتوقع أن بأسه سيصل إلى محاربتي على هذا النحو الرخيص، فآثرت الرحيل سراً

نحو الشمال إلى مدينة سرت الساحلية، آملاً أن لا تطالها يده لا سيما بعد أن حصلت على وظيفة في أحد مستشفياتها. وهناك عشت زاهداً مضرباً عن جميع النساء، لا بسبب خشيتي على سمعتي ووظيفتي الجديدة، بل فقداني الرغبة في الانتقام من امرأة تجاهلت زوجها مفضلة الأمومة وشؤون المنزل عليه، لأتقرب من أخريات أدركن قيمته، فأدرك هو رجولته المهدورة على سفح قدمي أم مهووسة.

أنا الآن، أعيش رفيقاً للوحدة في المدينة الجديدة، وأضطر أحياناً إلى الذهاب إلى سبها، حيث كنت أقيم لأجل الاطمئنان على طفليّ، اللذين ينشآن بعيداً عن والدهما في كنف أهل أمهما، لا أظنهما يفتقدانني مع كل وسائل الترفيه والراحة التي ينعمان بها. فتباعدت زياراتي لهما، متخذة طابعاً رسمياً خانقاً.

لقد حاولت أفراح استرضائي وإصلاح مجرى المياه المكسور، ولربما تغييره إن تطلب الأمر، إلا أن نفسي قد عافتها تماماً، ولن أدخل قفصها ثانية وإن كان الطعم إشغال منصب مديرٍ للمستشفى الذي كنت أعمل فيه سابقاً بعد وفاة مديره، إذ لم تنفع معي كل مناوراتها وتلميحاتها إلى لم شمل الأسرة من جديد.

أعلم أني قد أطلت عليك بتفاصيلي المملة هذه، ولا أعلم ما سيخبئه قادم أيامي... خالص الحب والامتنان.

ملاحظة/ لقد حصلت على رقم هاتفك من أحد الزملاء الذين التقيتهم في دورة طبية أقيمت في دبي، هذا في حال تساؤلك.

دكتور حيدر

خلعت نظارتي، وخلدت إلى نوم باغت فيه الدكتور حيدر كل أحلامي، فصحوت مثقلة بهم، وبأسئلة كثيرة حوله، حاولت إبعادها وأنا قائمة للصلاة، وطردتها من على فطوري. لاحظت أمي تجهمي وحيرتي، فطمأنت إياها ولم أخبرها عن عودة دكتور حيدر، الذي تجاهلت حينها الرد على رسالته، فكيف السبيل الآن إلى تجاهله!؟

قضمت آخر قطعة من الخيار مع حيرتي، ونهضت إلى المستشفى بكامل تكاسلي وإرهاقي، داعية الله أن لا يضعه في طريقي. وقبل أن أخرج تسرب إليّ خاطر، فعدوت نحو المرآة، أتفحص ثيابي وما تبقى من لمحة شباب على وجهي لم تطلها تلك الخطوط الدقيقة التي ساومتها ذلك اليوم بالاختباء ولو قليلاً، وأنا أضع بودرة الوجه.

انتهت ساعات الدوام ثقيلة متباطئة، يشوبها اعتلال مزاجي وتوتري المتصاعد خشية اللقاء به في أي لحظة. وعند بوابة المستشفى الخارجية وصل إلى سمعي أنه فد ذهب إلى بغداد لأجل إكمال الوثائق المتعلقة بنقله إلى البصرة، أصبح خبر انتقاله إلى هنا مؤكداً وليس إشاعة كما وددتها أن تكون.

مر الأسبوع بسلام، خال من أي خبر أو إشاعة، حتى لوهلة نسيت أمره بمشاغل العمل التي لا تنتهي بين صراخ إحداهن وبين تدوين بيان ولادة، عمل سيستمر وتجارة لن تبور ما دامت النساء موجودات، فحمدت الله على هذه النعمة وحفظها من الزوال.

كنت جالسة على المكتب أدون معلومات إحداهن لأجل إصدار بيان ولادة لطفلها، عندما سمعت صوت ترحيب ومباركة زميلاتي له. حاولت الاختباء، لكن أين؟ الحجرة صغيرة وليس فيها من إثاث سوى مكتب بثلاثة كراسٍ، وخزانة معدنية في الركن لحفظ السجلات

والأوراق، تصر أبوابها عند فتحها أو إغلاقها. استسلمت للصوت والخطوات المقتربة ناحيتي، فتظاهرت باستغراقي في العمل، منكفئة برأسي على السجل أدون المعلومات دون تركيز وأنا أهمس لنفسي: لا بد لي من مراجعة هذه الصفحة ثانية، خشية وقوع خطأ.

وقف عند الباب وقال بنبرة مرحة يشوبها بعض الخجل:

- أتسمحين لنا بالدخول؟

رفعت رأسي، ناهضة أحيي القادم بقولي:

- عفواً دكتور، المكان تحت أمرك.

فدخل وجلس على أحد الكرسيين المتقابلين عند طاولة المكتب.

خط الشيب فوديه، فزاده جاذبية وثقة، ازداد وزنه وبرز كرشه عن القميص قليلاً، لكن ذاك ما زاده إلا رشاقة حركة وحيوية بشكل محير، بقيت يداه جميلتين بأصابع طويلة ناعمة، بحة صوته بتأثير الزمن والسكائر صارت أكثر عمقاً، كما لون شفتيه الذي صار أغمق، يغطي أجزاء من الشفة العليا شارب خفيف رمادي أنيق، نزح شعر رأسه إلى الخلف قليلاً كاشفاً عن جبهة امتدت حدودها بشكل دائري عند كلا الجانبين، مع خطوط دقيقة متوازية ضربت بجذورها فيها وأحاطت بزاويتي العينين والفم، لتهب الوجه لمحة حكمة وخبرة ذكوريّة تستلطفها النساء، وتحارب ظهورها عليها في الوقت نفسه! فأية ازدواجية هذه؟! خطوط وجوههم وتجاعيدها حكمة وجاذبية! وخطوطنا لا تشي إلا بتقدم العمر وذبول زهرة الشباب!

اقتصر حديثنا القصير على تبادل التحايا والأخبار العامة، ولم ينسَ أن يواسيني على فقدان زوجي، متمنياً أن تصطلح أحوال البلد

بأقل القرابين من الضحايا والشهداء، وبأنه سيكون موجوداً لأي مساعدة. أظنه قال عبارته الأخيرة بشيء من الخجل مطرقاً برأسه وعينيه للأسفل عند قدميه. شكرته بطريقة رسمية لربما وشت له برغبتي في إنهاء الحديث، فارتكز بباطن كفيه على ركبتيه ونهض قائماً، وقبل أن يبرح الحجرة تمتم بصوت خفيض: لم تتغيري، وكأن السنون مرت بمحاذاتك ولم تمسسك البته. وضحك ثم أردف قائلاً: كالسجاد الكاشان يزداد جمالاً بتقادم عمره.

– شكراً على الإطراء والمجاملة، لكني أظن أنك مخطئ.

فحدجني بنظرة خجلت مما عنى بها، مطرقة الرأس صامتة ودعته إلى الباب.

– أراك وقتاً آخر.

لا يزال يملك جاذبية محببة أضفى عليها العمر سحراً ورونقاً، وها هو من جديد يجتاز الرواق بخطى واثقة ثابتة، تلاحقه أعين النسوة حسرة.

وحالما خرج من عندي، دخلن عليّ بعشرات الأسئلة حوله، ولم يروِ فضولهن أي من أجوبتي، وأتممن يومهن همزاً ولمزاً ضدي. وحين رجعت إلى البيت وقفت أمام المرآة، أنظر عن كثب إلى شكلي في محاولة للمقارنة بين ما همس به وبين ما تقوله لي المرآة، فحرت بمن أصدق، ومن أكذب؟ وبعد العشاء قلبت (ألبوم) الصور القديمة، لعلي أَجِد الجواب فيه.

في الأيام التي تلت حاولت قدر استطاعتي تجنب اللقاء به، متحاشية كل صدفة قد تجمعني بتلك النظرة التي يرمقني بها دون أن أفهم مغزاها، لكني خشيت وساوسي وظنوني، وأسئلة كثيرة بدأت

تتزاحم في رأسـي، مع علامة اسـتفهام كبيرة أمام السـؤال (ماذا يريد مني؟)، حينها لـم أفلح في التوصل إلى جواب حاسـم يقطع الطريق أمام سـيل التسـاؤلات، فآثرت أن أفسـح المجال أمام الوقت ليجيب عليها، ويفك بعضاً من رموزها.

توالـت الشـائعات حـول دكتـور حيدر، هـو الآن المـادة الأكثر طراوة لتلوكها الأفواه الفارغة، وكان الخبر الأوثق، هو نبأ انفصاله عن زوجته العراقية المقيمة في ليبيا. فعرفت أن محاولاتها في استرجاعه قد باءت بالفشل، يبدو أن تضييق سبل الرزق التي مارسها أبوها عليه لم تؤتِ أكلها، فرجع إلى حيث ينتمي، تاركا ولديه معها. هذا الخبر فتـح علـيّ مـن جديد باب الفضول والعيـون المتصيدة، فابتعدت عن محيـط دائـرة علاقاتـه ومعارفـه، موصـدة الباب بوجه ريـح الأقاويل والتكهنات. فقلت فرص تواجدي معه في المكان نفسه.

حياتي فيها من التعقيد والأعباء ما يكفي... آثرت أن لا أضيف إليها عبئاً أنا في غنى عنه تماماً، في غنى عن أن تطالني حكايات ألف ليلـة وليلـة، أن أكـون شـهرزاد دكتور حيدر، أن تكون حياتي مسـرحاً لخيالات وأوهام زملاء العمل ومادة أحاديثهم الدسمة، والتي ترتفع وتيرتها وتشحذ لسانها مع ضوء القمر.

طرق مسامعي خبر استئجاره شقة قرب المستشفى، وقد ساعدته بعض المقربات في تأثيثها وإضافة لمسـة أنثوية عليها، تعوض قليلاً عن غياب المرأة، إذ أشرن عليه بضرورة الزواج وعدم البقاء وحيداً.

تحاشـيت التعمـق أو الإصغـاء لأحاديثهـن حولـه، لئـلا أتّهـم بالاهتمـام لأمـره، وبقيـت ملتزمة بالسـير على النهج نفسـه، في جعل

مسـافة أمـان بينـي وبينـه تحـول دون تصادم مداراتنـا أو تلاقيها حتى بعد مرور ثلاثة أشهر على عودته. حاول هو في البداية تحين الفرص ليتحـدث معـي، وحيـن أدرك أني دوماً أختلق الأعذار والذرائع لعدم الالتقاء به، نفد صبره، وأظنه نسـي أمري. لا سـيما بعد ظهور طبيبة فـي أفـق اهتماماتـه، الأمر الـذي أثار حفيظتي ولربمـا بعضاً من غيرة نسـائية فطرية لا مسـوغ لها أبداً. كذلك نسـي الجميع ما كان يربطني به في سالف حكايا المستشفى، صار همهم تقصي أخباره مع الطبيبة وملاحقـة خطواتهمـا، فطاردتهمـا الشـائعات إلـى عقـر دارهـا، حين حملـت إحـدى الزميـلات في جعبتها نبأ انتقال الطبيبة من مستشـفانا إلى مستشـفى آخر، بعد أن قدمت وثائق نقلها بخاتم ذهب يلمع في إصبع يدها اليمنى.

لمعـان الخاتـم ومتانة صنعه والشـاب القوي البنية الذي تأبطت ذراعه تحت أنظار ودهشة الجميع، أغلق فم الشائعات، ورسم علامة استفهام كبيرة على كل الوجوه.

بـادرت الطبيبـة حينهـا إلـى التعريـف عن خطيبهـا، الذي فرض سطوة رجولية على نبرة صوتها، وعلى ذراعها التي بقيت في قبضته، فبـدت متحفظـة، متأنيـة الخطـى، رغـم أنها قـد لفت معـه كل أروقة المستشـفى، في حملة دعائية أخيرة، قبل أن تودع المستشـفى للمرة الأخيرة.

دار لغـط وسـرت أحاديـث غيـر مؤكدة حول خطوبـة الدكتورة المفاجئة لابن عمها المهندس، الذي فرضه والدها عليها عنوة بعدما طرقت سـمعه وشـايات عن علاقتها بدكتور حيدر، الذي طلب منها مهلة من الوقت ليتقربا من بعض ويفهم أحدهما الآخر بصورة أفضل،

الأمر الذي جرح مشاعر الدكتورة، وأشعرها بفتور عزيمته وتعلقه بها. فقبلت صاغرة بابن عمها بعد عدة محاولات سابقة منه في لفت نظرها ونيل استحسانها، الذي كان بعيد المنال لولا دخول دكتور حيدر حياتها، وما سببه لها من مشاكل مع عائلتها، وعدم ثقتهم بحصافة خياراتها، ما اضطرها النزول عند رغبتهم والموافقة على ابن عمها، المتحمس للارتباط بها تحقيقاً لرغبة الأهل في الاحتفاظ بعادات وتقاليد عائلتهم (بنت العم لابن العم).

قيل إنها في نوبة حسرة وغضب، قد ناشدت الله أن يأخذ بثأرها ممن آذاها، فتلفتت الوجوه بعضها إلى بعض ووشت العيون باسمه.

استمرت الأقاويل بعضاً من الوقت، ثم انتهت كلياً بعد حفلة الزفاف الفخمة وفستان العرس المدهش، بذيله الطويل الفخم، المصمم في واحدة من دور الأزياء الراقية في تركيا، سالباً لب الكثيرات وجالباً الحسرة على حظهن القليل. تداولت الممرضات أخبار ذلك الفستان وتلك الحفلة الكبيرة حتى وصلت إلى أفواه المنتسبين الرجال، فأثارت فضولهم وتحليلاتهم السلبية على إنها نوعٌ من التعويض لها عن خيبة الأمل التي سددها لها أحدهم، فطفت على سطح الأحاديث مناوشات بين نساء المستشفى ورجاله، كل منهم تحمس مدافعاً عن جنسه، فطال شرر ألسنتهم دكتور حيدر واتهامه بالتلاعب بقلب الطبيبة الشابة وسمعتها، ومن حينها بدأت وجهات النظر حوله بالتضاد والتناقض بين من يبرر فعلته مؤيداً لرغبته في المزيد من الوقت ليتعارفا أكثر، وبين مستهجن لها.

هذه الحادثة أعادت رسم صورته بألوان رمادية لم تكن ظاهرة من قبل، فخفت كفة شعبيته في ميزان الآخرين. أصبحت لا أراه إلا ما

ندر، وكأنه هو الآخر يرغب في الابتعاد، فاقتصرت فرص اللقاء به إلى دقيقة أو اثنتين، يحيِّي أحدنا الآخر بطابع رسـمي، وكل ينصرف إلى غايته. لم يعرف المتطفلون من تكون غاية الدكتور الجديدة وطريدته، فقد سـرت بين الأفواه والأسـماع أسـماء عديدة، لم ألقِ لها بالاً، ولـم أتدخـل ولـو بتعليـق حول حياته، وما يكتنفها من أسـرار ومغامرات، أُفشي بعضها.

أواه... ليت هذا الطريق يكشف عن آخره، ما عدت أعرف أين تأخذني قدماي وأفكاري، أجوب أزقة الظنون ولا علامة دالة ترشدني، أجلس على أرصفة الذاكرة فتحرقني حرارة بلاط الذكريات. انقطع الحبل الممدود، الذي يسعفني في كل مرة من بئر ظلماتي، خمسون عاماً... أظنها كافية... يا الله كم أتوق إلى محطتي الأخيرة، مثوى ترابي أسند رأسي على راحته، أنزع همومي وذنوبي معاً، يحمل الدود لحمي ولا يبقي سوى العظام، لحم مهترئ، أفسدته الحياة بمرارة تجاربها... يا الله أين أنا من ذلك القبر الذي يسع نزيف جراحاتي؟ وصلت همومي إلى لجتها، لتطفو على سطحها كل ضلالاتي وأشباحي وأوهامي.

وذات صبيحة شتوية باردة، لزمت الفراش ولم أنهض كعادتي مبكرة، وددت أن أتذوق طعم الرفاهية، أن أسرح مع نفسي منعمة بدفء الفراش والهدوء، كان اليوم جمعة ولا يزال الجميع نائمين، خدرين بأحلام دافئة. ترددت في النهوض متكاسلة لإعداد الشاي، الذي كان تحضيره من نصيب والدتي، طوال نصف قرن من عمرها حتى بعد أن تقاعدت عن العمل، لكن ضعف بصرها الآخذ بالازدياد هو من منحها تقاعداً نهائياً عن إعداده (رائحة الشاي تعبئ أنفاسي وتطغى على حاسة شمي) تمهلت في النهوض، كان إغراء السرير

أكبر من إغراء قدح الشاي برائحة الهيل. فغفوت ثانية، صوت بعيد تناهى إلى سمعي، طرق باب يرتفع، يتمازج بالحلم، حلم تكدره أصوات تتزايد ارتفاعاً، استدرت نحو الجهة الثانية، لأبعد الضجيج، لكنه استمر، فأقلق حلمي، تتداخل الوجوه، ترتبك الأحداث، تتلاقى الأصوات، وصوت طرق الباب يعلو على الحلم، فأستفيق على طرقات متتالية لا تعرف التوقف. أجري إلى الباب مسرعة، لعلها حالة ولادة طارئة.

وجه غريب، ليست من نساء الحي، لكنها مألوفة، وقفت بشفة مزرقة ترتجف الكلمات عليها حين قالت بنبرة متوسلة:

– أهذا بيت أم هناء؟

كانت تتلفت حولها، تجول عيناها بين أرجاء المكان بنظرة غريبة وأسى، يشخص بصرها عند أطلال البيت المجاور لنا، تتلعثم، تمسك ببلعومها عبرة وهي تردف قائلة:

– لم يتغير الشيء الكثير!

لم أعرف بما أجيبها، فهززت رأسي موافقة، كانت تنزوي خلفها فتاة شابة، متوردة الوجنتين، بفم مكتنز صغير، وعينين عسليتين تتفقدان المكان بدهشة الغريب. تمعنت فيهما، فأيقنت أنهما لسنَ من نساء الحي، ولم أقم بتطبيبهن يوماً فتوجست خيفة لبرهة منهما، كنت قد تركت ممارسة العمل في الإجهاض، فقلت لهما:

– لقد أخطأتما في العنوان، لم أعد...

وقبل أن أكمل عبارتي شهقت قائلة:

– كيف... أليست هذه دار أم هناء؟

أثار ريبتي سؤالها، هي تعرف وفاء كذلك، لا بد أن لها معرفة

بها، فرددت:

- بلى هي دار أم هناء!
- حمداً لله... أخيراً وصلت...

كانتا متعبتين، رغم أن الصباح كان في أوله، تخيم على وجهيهما غمامة نعاس وإرهاق. فسألتها:

- كيف عساني أن أخدمك؟

ابتسمت المرأة وقالت وهي تمعن في النظر إليّ:

- يبدو أنك لم تعرفيني... ألستِ هناء؟

فقابلتها بابتسامة كبيرة قائلة:

- بلى... أنا هناء، لكن من تكونين؟

ردت بنبرة حزينة، مطرقة برأسها:

- تمعني جيداً بقسمات وجهي.

امـرأة بنفـس عمري على وجه التقريب، تتشـح بالسـواد، تحيط عينيهـا هالـة داكنة وخطوط رفيعـة، وخطان حادان عموديان يقاطعان امتـداد حاجبيـن كثّيـن يتخللهمـا زغب أبيض، شـفة عليا مسـتدقة لم ترحمها التجاعيد، تلمست وجهي بحركة سريعة لا إرادية وأنا أطمئن نفسـي، واعـدة إياهـا بأني سـأواظب على وضع الكريمـات المضادة للتجاعيـد، تتلفع بالتشـادور الإيراني، كذلـك الفتاة التي برفقتها، هل هما من أقارب أمي؟... لم أسـمعها تذكر وجود أحدٍ من أقاربها في إيران.

خجلت من إخبارها بأني لم أتعرف عليها، بعد أن عانقتني باكية منتحبـة، فدعوتهمـا للدخـول، وأنـا أتسـاءل مع نفسـي، وجهها ليس بالغريب عليّ، لا أتذكر أين كان لقاؤنا.

أجلستهما وذهبت إلى المطبخ مسرعة لأعد الشاي، في محاولة مني لإنعاش الذاكرة التي سببت لي الإحراج أمام المرأة... يا الله أين رأيتها؟! هيئتها وصوتها ليسا بالغريبين عليّ! لكن أين؟

انتهيت من إعداد الشاي ولم تسعفني الذاكرة، فحملت (صينية) الشاي، لعلها تخفف من وطأة موقفي وإحراجي، وحديث الشاي في هذا الصباح البارد قد يزيل ضبابية الصورة.

سألتني عن أحوال والدتي وأختي وفاء بحميمية واهتمام شعرت بسببه بالخجل، وأنا لا أزال أرمقها بعينين متفحصتين، مشنفة أذني لكل كلمة قد تكون معها المفتاح لباب ذاكرتي الصدئ. وأظنها قد تنبهت إلى ذلك، فباغتتني بالسؤال:

- لا ألومك إن لم تتعرفي إليّ، مرت سنوات...

وتعثرت كلماتها، ساقطة في وحل دموع وسيلان أنف ظل محمراً طوال الوقت، فمددت لها يدي بالمناديل الورقية وبمجاملات وكلمات ترحاب من هنا وهناك. أثنيت فيها على الفتاة الشابة، وعلى حسن طلتها وابتسامتها... ابتسامتها التي أيقظت فيّ إحساساً ما، لم أعرف كنهه، ضاق صدري، واختلج قلبي منه، حتى عيناها لم ترحماني، فأشحت بوجهي عن خاطر غريب راودني، وسؤال قفز إلى طرف لساني:

- هل أنتم من إيران؟

فردت المرأة من بين المناديل المبتلة مستدركة سيل أنفها المحمر:

- لا... ونعم.

شعرت بالاستياء، وبنفاد صبري من هذه الإجابة فقلت بنبرة

حادة قليلاً:

- لكن هيئتيكما تدل على إنكما من هناك.
- نعم قدمنا من إيران، إلا أننا في الأصل عراقيتان. ما بالك هناء؟ ألم تعرفيني بعد!؟

وقع نشيج كلماتها كالرعد على أذني، فصحت مهتاجة:

- أمعقول... يا الله... أمعقول (ونهضت من كرسيي نحوها معانقة باكية) أنت هند؟... أأنت هند؟ أهذا معقول؟ كيف... أنت هند؟ نعم أنت هي!

وانزلقنا إلى منحدر دموع ونشيج ثلاثي العزف، متعانقات.

مر الزمن بخطى حديدية على وجه هند، تاركاً آثاره القاسية على تعابيرها، بشرة جافة مشققة، يكتنفها الكلف وبقايا بثور، لم تمر عليها اليد بأي كريم مرطب أو حتى زيت الطبخ. يبدو من يديها أنها قد عانت من شظف العيش، أظافر مقلمة دونما انتظام، حافاتها العلوية ملتصقة تماماً بلحم الإصبع من شدة القضم، تلمح آثار جروح عند بعض حواف الأصابع، كانت قبضة يدها قوية صلبة حين أمسكت ذراعي معانقة.

لقد تغيرت كثيراً وبالكاد عرفتها، لكني أعرف جيداً سر قدومها، فأطرقت برأسي حائرة وجلة، ماذا عساني أقول لها، وأنا أراها قلقة مضطربة لا تستقر عيناها على شيء، وسؤال يتأرجح على طرف لسانها، تحينت الفرصة بعد دقائق التعارف والمجاملات لتطرحه. حاولت استدراجها للسؤال عن حالها طوال السنوات التي مرت، حقاً وددت أن أعرف ما ألمَّ بها وهل أن رياض لم يزل على قيد الحياة؟ لمعت الفكرة في رأسي، ودفقة دم حار صعد إلى صدغي فبادرتها

بالسؤال: وكيف حال رياض والآخرين؟

رمقتني بنظرة لم أفهم مغزاها، رداً أو ربما امتعاضاً من نبرة صوتي المتوقدة وانفعالي الواضح، وأنا أسأل عن رياض... أوه كم أنا غبية! فأجابت باقتضاب:

- لم أعرف عنه شيئاً منذ ذلك اليوم المشؤوم، لقد فرقونا عن بعض. كذلك فصلني المحقق عن أم رياض وبنتيها حين قرأ اسمي في الملف، أرجأ التحقيق معي إلى أكثر من مرة، بقيت في حجرة صغيرة لوحدي، لم أرجع إلى الزنزانة معهن، لكني من تلك الحجرة المنعزلة تهادى إلى سمعي صوت عويل وصراخ رجال مرعب يشق ظلام الليل وسكونه، فيقشعر بدني، وترتجف أوصالي من صوت الألم وهو يستنجدني عبر فتحة عتبة الباب السفلية، التي سمح السجان لها أن تمرر لي بصيصاً من ضوء مصباح مسمرٍ على الحائط عند آخر الممر ينازع.

كانت ساعات الليل طويلة موحشة، أقضيها وأنا أجلس القرفصاء من البرد والظلمة، أصم أذني بكلتا يديّ المدفونتين في حجري. خشيت أن أسمع أصوات عذاب رياض أو صراخ استغاثته، فما أصعب على المرأة أن تسمع نشيج من تحب. (رفعت رأسها ورمقتني بنظرة متحدية رغم الأسى، وكأنها تخبرني: لستِ وحدكِ يا هناء من التاع قلبها بحبه) ثم استأنفت حديثها:

وفي ساعة متأخرة من إحدى الليالي، دخل عليّ الحجرة المحقق بنفسه دون أي مرافق أو عسكري، وسألني عن اسمي ثانية ومكان تولدي فكرر قائلا:

– هذا يعني أنك بنت الحاج ساچت؟

حينها دهشت من كلامه فأجبته على الفور لاهثة، وكأن الحاج ساچت سيكون طوق نجاتي:

– نعم أنا ابنة الحاج ساچت.

هز رأسه موافقاً، وبعد برهة صمت، قال بصوت خفيض وهو يشير إلى ملف ورقي بيده:

– سأخفيه فلا يعود لاسمك من وجود.

ثم أردف بنبرة متشنجة متعالية:

– حتماً تدركين أن في الموضوع حز رقاب، إن كشف الأمر، لكن الحاج ساچت يستحق مثل هذه المجازفة، له دين في ذمتي وها قد حان سداده. ثم ناولني كيساً بلاستيكياً أسود، وطلب مني أن أرتدي الزِّي المدني الرجالي الذي كان بداخله، وقبل أن ينصرف قال:

– سيأتي بعد قليل شرطي ليصحبك معه، لا تفكري في العودة مرة أخرى.

وقبل أن أفهم ما قصده صفق الباب ومشى مسرعاً تلحقه همهمتي واندهاشي. لم أعرف اسمه، كذلك لم أتبين شكله جيداً من على ضوء مصباح الفناء الخارجي الساقط على نافذة تلك الحجرة حيث أقبع، ولم يسعفني الضوء الخافت المتسلل عبر عتبة الباب إلا من رؤية ذقن ونصف فم، لكني أميز صوته جيداً فقد حقق معي في المرتين السابقتين وأكد عليّ سائلاً عن اسمي الكامل واللقب.

سرنا في ممر جانبي خلفي، تغطينا العتمة، ولا يكشف خطواتنا المتعجلة سوى قمر يراقب عن بعد، صعدت معه إلى سيارة حكومية

كانت تقف بانتظارنا في ظل الجدار الخلفي للبناية التي خرجنا منها.

مزق هدير محركها نسيج صمت حاكته ليلة شتاء باردة، منطلقين، تاركين خلفنا مدينة غافية ومصابيح شوارع تهدهد نفسها نعسة.

لم أعرف وجهتنا، إذ لم أسأله، وقضينا مسافة الطريق صامتين، وبعد أقل من ساعة على طريق خارجي أجرد إلا من القمر وبضع نجوم، انعطفت بِنَا السيارة إلى طريق ريفي جانبي نبهني إليه هسيس شجيراته وبيوت صغيرة متناثرة على طوله.

سارت السيارة بعضاً من الوقت في طرق فرعية بين أشجار النخيل المتبقية وأعواد القصب إلى أن توقفت في طريق ترابي على مقربة من الشط، ترجل الشرطي من السيارة إلى رجل ملثم كان على ما يبدو بانتظارنا، يقف عند حافة الشط قرب قارب خشبي صغير. لفحتني نسائم باردة حين أنزلت زجاج نافذة السيارة، أصخت السمع، لكن دون جدوى، وبعد دقائق عاد الشرطي وقال بكلمات مقتضبة:

- هيا انزلي، سيقلك ذلك الشخص إلى الناحية الأخرى.

تجمد الدم بعروقي وأنا أتمتم: الناحية الأخرى؟... أي ناحية تقصد؟

لم يجب على سؤالي، لكن شكي كان في محله، وفهمت لماذا طلب مني المحقق عدم العودة ثانية.

أنا ماضية إلى منفاي، هطلت دموعي غزيرة على بلد يلفظ أبناءه دون رحمة، مودعة خلفي كل من أحببت. لم تتوقف دموعي، نحيبي الصامت المر، وعند منتصف المسافة بين الضفتين صعدت إلى متن قارب آخر لا يختلف عن سابقه إلا من حيث المالك، فالأول كان عراقياً، وهذا الثاني إيراني، تداول بعض الكلمات العربية مع الأول

بلسان ثقيل.

في عتمة الليل تم نقلي كبضاعة مهربة، حرصوا عليها. بدأ الفجر يمزق عباءة الظلام، ولا يكشف سوى عن عينين صغيرتين وحاجبين متداخلين ظهرا من وجه صاحب القارب الملثم. وحال وصولنا إلى الضفة الأخرى، سلمت البضاعة، أقصد أنا، مرة أخرى إلى رجل آخر أعطاني قطعة قماش كبيرة سوداء وأشار إليّ بأن ألفها عليّ كالعباءة.

سار أمامي وأنا كنت أحاول اللحاق به لاهثة، استبد بـي التعب للغايـة بعـد قرابـة سـاعة وأكثـر من المشـي في أزقة لا تـزال تغط في نومها، ولا يُسمع إلا مواء القطط بين الحين والآخر، فتلبدت الظلمة فـي قلبــي، اعتصرته وحشـة المكان، صداع شـديد أمسـك برأسـي، أفقدني القابلية على التركيز، فأكملت معه الطريق خائرة القوى منهكة، أتبع خطواته التي تسـبقني بعشـر. الإرهاق تسـرب إليّ من كل خلية في جسمي، لم أعد أستطيع المقاومة، دارت الدنيا بـي فهويت على الأرض مغشياً علي، ولـم أستيقظ إلا وأنا ممددة في الركن في حجرة فيها عدد من النساء والأطفال.

اقتربت مني إحداهن وقدمت لي كسرة خبز وماء التهمتها على عجـل، مضـى يومـان وبطنـي فارغة تلوك نفسـها، بعدها أخلدت إلى النوم ثانية، مثقلة الرأس والشـعور، فكل شـيء جرى دون إرادة مني أو استعداد له، انسقت إلى خطواتي كبهيمة تؤخذ إلى حتفها، تبلدت عواطفي، تداخلت وتمازجت الأحلام بالواقع ولوهلة فقدت القدرة على التمييز بين الكابوس والحقيقة، فكثيراً ما كنت أصحو من النوم أهـذي، مسـتغرقة فـي شـرودي، وحرارة وبـرودة تنازعتا على جسـد متهالك ضعيف، وعقل يرشح ذكريات ووجوه باتت بعيدة كل البعد.

بعد ثلاثة أيام أخبرتني إحدى النساء:

- لازمتك حمى شديدة، خشينا أن تموتي وسط عجزنا وقلة حيلتنا، ونحمد الله تعالى أن أتت كمادات الماء بنفعها، كنت طوال الليل تهذين بأسماء كثيرة، ترددين في نوبات بكاء مجنون أسماءهم حتى خلنا أن الحمى قد أفقدتك عقلك. فحمدا لله على السلامة مرة ثانية، أقلقتنا عليك للغاية يا امرأة.

لم يستجب لساني لكلمات كثيرة تدحرجت إليه، فقلت باقتضاب:

- شكراً لكن...
- لا عليك، المهم أنت اليوم بخير.

وجلبت لي كأس حليب دافئ وكسرة خبز جفت رائحتها، ولولا الحليب ما استطعت مضغها. تفحصت حرارتي بباطن كف صلب مشقق قائلة:

- استريحي في فراشك، ولا تجهدي نفسك، فجسمك لا يزال مرهقاً.

وسحبت الغطاء لتدثرني، فشكرت لها حسن اهتمامها ولطفها.

بقينا في هذا المكان الذي لم ألمح شكله الخارجي إلا حين خرجنا منه، بعد إتمام عشرة أيام، أقلونا بعدها في شاحنات تشبه الشاحنات العسكرية، وكانت تلك آخر مرة أرى فيها تلك السيدة التي ساعدتني واعتنت بي كابنة لها، افتقدتها، معها خفت عليّ وطأة الغربة، وها أنا ثانية أرزح تحت سطوتها، بحثت عنها بين الوجوه في المكان الذي توقفنا عنده، فلم أجدها ليزداد الضيق في صدري من

هذا المكان الجديد.

طوابيـر متقابلـة من غرف صغيـرة متلاصقة تزاحم بعضها بعضاً مبنية من (البلوك)، يغطيها سـقفٌ مشـتركٌ من مادة (الأسبسـت). هذه الطوابيـر، الممتـدة علـى عـرض بقعة جرداء قاحلة محاطة بسـور من الأسـلاك المعدنيـة، لا يفصـل بعضهـا عن بعض سـوى أزقة ترابية لا يتجاوز عرضها خمسة أمتار يشقها عند المنتصف تقريباً ساقية للمياه الآسـنة، تعمل بإخلاص على تطرية ذرات هواء المخيم برائحة نتنة، تلتصق بكل ما يقابلها. في البداية أزكمت أنفي، ووددت لو أسـتفرغ أحشـائي، ولشـد مـا أدهشـني حينهـا أنهـا لا تضايق سـكان المخيم، صارت لصيقة بجلودهم المشتاقة لطعم الماء.

تقيـم فـي كل حجـرة عائلة، فاقتطعت لي ركناً من حجرة صغيرة مع سيدة في منتصف الخمسينات من عمرها وابنتها العشرينية.

كانت الحياة صعبة في المخيم وبرد ليلها طويل، غطاء واحد لا يستطيع الوقوف بوجهه وهو يتسلل من السقف وعتبة الباب، فتشاركنا الفراش والغطاء نحن الثلاث طلباً لدفء أوفر. كذلك ساعات النهار مملة نقضي معظمها في صمت وشرود، فلا أمل بكلمات لن تجلب لنـا الـدفء، ولا حكايـا تطمئن الوجدان، فجيـوب القلب قد تمزقت وما عادت تسع.

الـكل يجتـر حزنـه، يطيل المكوث في صمته، وجوهنا شـاحبة، نقـص الغـذاء والخدمـات بان واضحـاً في هزال الجميـع ونحولهم. لم تكن الحصة التموينية كافية، لا تسـد إلا رمق أول الشـهر، فيضطر الرجـال إلـى العمـل خـارج المخيم في أعمال البنـاء والزراعة بأجور متواضعة، تواءم التعب، لكنها تكمل بقية الشهر على الكفاف.

التقيت هناك عوائل عراقية من محافظات مختلفة، مآسٍ عديدة وقصص شتى وراء كل وجه يفتر عن ابتسامة أو غصة، هالني ما سمعت من قسوة وألم، وعددت نفسي الأكبر حظاً بينهم، أقل وجعاً ضمن مقاييس المخيم (الأوردكا).

ساءت صحتي واعتل مزاجي، وعافت نفسي الأكل والشرب رغم قلته، لازمتني معها نوبات الغثيان الصباحي المتكرر، فحسبتها بسبب جو المخيم القابع تحت الرطوبة والأمراض. لم أتنبه حينها إلى انقطاع الطمث، كانت همومي أكبر وأعمق من أن أفتقده أو أعد الأيام.

شغلت السيدة وابنتها معظم ساعات النهار بأعمال الحياكة، فوبخت نفسي على إهمالي لدرس الفنية ومبادئ الحياكة التي لم ألقِ بالاً لها، وها أنا اليوم أحصدها عتباً وملامةً. اقتربت من السيدة، فلمحت في عينيّ رغبة في التعلم جاءت متأخرة، فاقتنصتها بخبرة الأم قبل أن تتلاشى، فكنت التلميذة النجيبة لمعلمة صبرت على هفواتي، وبعد فترة صرت أجاريهن في أعمال الحياكة، التي تبيعها أو تقايضها مع أهل المخيم أو للحراس الذين يبيعونها في الأسواق خارجاً بهامش ربح أكبر مما نجنيه نحن، لكنه كان يفي بحاجتنا لآخر الشهر.

انصب اهتمامي على أعمال الحياكة نهاراً، وفِي الليل لا مهرب لنا من اجترار الذكريات والأوجاع. فتروي لي حاسرة الرأس والكتفين، تعبث متوترة بأصابع يديها المتشابكة، طاوية قدميها تحت فخذين هزيلتين، أذاب الفراق شحمهما، كيف نجا بعضهم من موت محقق، زحفوا من تحت الأنقاض، لم يترك التراب بقعة فيهم إلا

وغطاها، كالأشباح هرعوا إلى الجيران لإيوائهم، بين الأزقة توشحوا الظلال، تعثرت خطواتهم على صوت الدبابة تجر جنازيرها متثاقلة، تبحث بفوهتها المجنونة عن صدى صوت، فدكت بيتهم بثلاث قذائف، مزقت منه القلب، والمراهق الصبي الذي ناورها من السطح بمسدس حصل عليه بثمن زهيد، مقابل روحه وجسده الذي جمع الجيران من على سطوحهم أشلاءه.

قطعوا معظم المسافة إلى الحدود على الأقدام، حيث تتزاحم الخطى بأحلام الحرية المغدورة والآمال المنكوبة في حائط لا يحمل صورة قسراً، وشارع بلا جدارية أو نصب وتمثال.

هربنا من الموت إلى برودة وقفر العيش في هذا المخيم. عمل زوجي في أعمال البناء التي كانت فوق قدرة تحمل وطاقة جسمه الذي انهار في أحد الأيام، تاركاً إياي وابنتين بعمر الشباب، أرد عنهما بعض النفوس الطامعة، إذ لم أستطع رد الموت عن ولدي البكر، أُزهق شبابه على مشانق الوطن قرباناً، والآخر بدبابة الوطن نزف دمه، يا لذلك الوطن!... استكثر عليهما بشاهد قبر. أموت هنا جوعاً في أرض الغربة ولا أرجع ثانية إليه، إلى رحم يلفظ أبناءه. يرضع أطفاله طعم الحليب بمذاق اليتم الأصيل، لا لن أعود حتى لو بقيت وحدي هنا. لن أحمل هماً ما دامت واحدة من بناتي قد تزوجت في المخيم بعد أن يئسنا من تزويجها في وطن تنصل أبناؤه منا بتهمة أن لها أخاً معدوماً، مثلما عانتا في المدرسة من همز ولمز بعضهن، وآمنة لن أقف بوجه نصيبها حين يطرق الباب.

ومسحت بكم ثوبها أنفاً أحمر مقشر الجوانب يرشح باستمرار وهي تقول:

دعونـا نخلـد إلـى النـوم، فالنفخ في جمر القلب لن يذر سـوى الرماد في عيوننا.

توسطت أم عامر الفراش كأم وابنتيها وأمسكت أنا وآمنة طرفيه، حتى نتشارك الأغطية، مثلما تشاركنا الهم والأحزان، الأمر الذي هون عليّ الغربة وفقد الأحبة.

أصبحتا عائلتي الجديدة التي أسـند رأسـي إلى كتفها، وشاركت آمنة أسرارها مثلما شاركتها أمها... أم عامر التي غمرتني بفيض حبها وكأنهـا خُلقـت لتكـون أماً بالفطرة، عوضتني عن الأم التي ذهبت إلى بارئهـا مكلومـة القلـب، تطلب لي الرحمة مذيلة بسـورة الفاتحة على روحـي... آه أمـي... وانزلقـت هند في بركة دموعها ثانية، فهبت هناء لنجدتها بمناديل ورقية، مسـتأنفة سـرد حكايا مخيم قضت فيه قرابة عشـرة أشـهر، لتذهب بعدها إلى منفاها الأخير، حين طلب (المُبلغ): الموظـف الـذي يعمـل كحلقة وصل بيـن اللاجئين وحكومته، من أم عامر، التي تهلل وجهها فرحاً، يدي لأخيه الأرمل.

لقد مقت هذا الرجل وعرضه، لكن أم عامر نصحتني بالتروي، بعد أن بينت لي مسـاوئ أن تبقى واحدة مثلي وسـط مخيم بلا رجل يلجم الألسنة في الأفواه. وبعد ذلك العرض بأسبوع من كمد وحزن، ودعت أم عامر وآمنة مطرقة الرأس، كسيرة القلب، فاقدة عائلتي للمرة الثانية، وراحلة إلى قرية صغيرة تقبع في الشمال منزوية بعيدة، يغطي الثلج حياتها أشهراً عديدة، فنبقى خلف الأبواب المغلقة نترصد قدوم الصيف من الثقوب.

اسـتغرق الطريق نحو تلك القرية زهاء يومين، بواسـطة سـيارة ضيقـة قديمـة، قصمـت ظهري، وأنهكت قوايَ، رغـم جمال المناظر

التي مررنا بها على الطريق، غابات عالية خضراء، جبال شاهقة تعانق رؤوسها الغمام، لم تطأها قدم إنسان، طبيعة خلابة، سماء زرقاء صافية لـم يعلُهـا يومـاً الغبار، اللون الأخضر يفترش الطريق على مد البصر، بيوت صغيرة تتناثر هنا وهناك، ينابيع ماء وجداول تتدفق بنشاط، بين الصخور تشق طريقها، كما السيارة تنحدر نزولاً أو تصعد ارتفاعاً بين الحين والآخر على طرقُ شقت فوق الجبال أو بين الأودية.

التعـب والإرهـاق لم يقللا من انبهاري لما تشـاهده عيني لأول مـرة، خلـت نفسـي وهلـة وكأنني في الجنة التـي وصفها الله في كريم كتابه. لكن ابنة الصحراء والرمال ظلت تفتقد أشجار النخيل وبداعة شكلها الباسق المهيب.

كان فـي الخمسـين مـن عمـره، طويل القامة، محـدودب الظهر قليلاً، ضخم الجثة واليدين، تعلو وجهه التجاعيد، ومسحة حزن تطفو علـى عينيـن فيروزيتيـن صغيرتيـن برموش كثيفة، يسـورهما حاجبان أسودان معقودان على جبهة واسعة، تتراجع حدودها مع حدود شعر كثيف ناعم زرع الغمام بذوره فيه.

اسـتقبلنا بحياديـة فـي بيـت حاول جاهـداً الحفاظ علـى نظافته وترتيبه، لم يعرني من اهتمامه ولو نظرة. دلفت الغرفة التي أشار إليها أخوه، وبعد أقل من ساعة حضر رجل الدين برفقة الشهود وتم عقد قراني إلى رجل لم ألمحه إلا عدة دقائق.

كان أخوه هو همزة الوصل بيننا في البداية المبكرة، لما يعرفه من لغـة عربيـة تعلمهـا بفعل متطلبات وظيفته التي تحتم عليه التعامل مع اللاجئيـن العراقييـن، منـه عرفت أن زوجة أخيه قد وافاها الأجل قبل

سنة ونيف، بعد زواج امتد عشرين سنة تقريباً دون أن يحصدا ثماره.

أبلغني أيضاً ببعض الأمور المنزلية وكذلك الأمور الخاصة بأخيه، اسمه بالكامل، عمله، وبعض من صفاته، مضيفاً بشكل مازح بأن باقي صفات أخيه وعاداته ستكتشفها زوجته.

انقضى اليومان، وعاد (المُبلغ) إلى عمله، بعد أن أودعت في جعبته الكثير من التحايا وعبارات التطمين إلى أم عامر وآمنة.

حل الصمت في البيت وأمست لغة الإشارة هي وسيلتنا في التعاطي مع بعض، وقد تقشفنا أيضاً في تبادلها طوال السنوات التي عشتها معه. حياديته الباردة معي لم تحفزني على الاقتراب منه، فبنيت حدوداً بيننا، تحتاج إلى تأشيرة دخول، ولم أبذل جهداً في تعلم لغة لا أحتاج إلا لمفردات قليلة منها تسعفني في السوق أو لقضاء بعض الأعمال. بقيت صورة زوجته المتوفاة معلقة في ركن حجرة نومهما السابقة، مثلما بقيت أشياءها وكل مقتنياتها كما هي منذ أن رحلت.

دخلت إلى تلك الحجرة مرة أو اثنتين بدافع فضول أنثوي، فأحسست بمدى حبه لها وعجزه في التأقلم على الحياة دونها، كل شيء فيها نظيف، يخشى الغبار أن يطأ هامة مرآة زينتها، أو يركن قليلاً إلى زجاجات عطورها الشذية، ترقد ملابسها مرتبة منظمة في خزانتها، صندوق أحذيتها القليلة يتباهى بلمعانه، والغزال لا يزال شارداً في سجادة الأرض اليدوية الصنع، والزاهية الألوان. حسدتها رغم إرادتي، ليس طمعاً في حبه واهتمامه، لكن هي غريزة الأنثى التي تستيقظ أحياناً عند منتصف الليل على صوت نشيجه المتسلل إلي، فأتبع أثر خطواته لأجد رضوي متمدداً على فراشها غامداً وجهه في وسادتها، خانقاً بكاءً متحشرجاً يحرق أعلى حنجرته، فأنسل عائدة

بهدوء إلى فراشي دون أن أجعله يشعر بـي، أو حتى أخبره يوماً بذلك. احترمت إخلاصه لزوجته، لكن ثارت ثائرتي حين سـمى ابنتي، التي كانت رضيعة بعمر الشهرين حين تزوجته، شاه زنان على اسم زوجته، لتحتـل شـاه زنـان الصغيرة مكانة عميقة في قلبـه المفجوع بفقد تلك الكبيـرة، حتـى أن زياراتـه الليليـة لتلك الغرفة قلت تدريجياً، انشـغل عقله وقلبه بحب جديد، ببرعم نما على يديه حتى صار زهرة جميلة، هو نعم الأب لها، أفسـدها حباً ودلالاً، وهكذا تمكنت شـاه زنان من رفع لوائها على أرجاء قلبه وربوعه.

رباهـا علـى طريقتـه مثلما أطلق اسـمه عليها فـي دائرة الأحوال المدنية، فأصبحت شاه زنان ابنة رضوي حقاً أمام كل الناس، وحتى أخوته وأقاربه الذين باركوا له مهنئين التفاتة الله الكريمة له بعد صبر طويـل. لـم يـود أن يعرف أحـدٌ بالحقيقة فاحترمت رغبته، وشـكرت الله على هذا الأب الطيب لابنتي التي أمست يتيمة وهي في الرحم.

اختلطت عليّ ملامحها، فشبهتها تارة برياض في بعض تقاسيم وجهها وتعابيره، لكن مع الوقت أدركت أنها اكتسـبت شـبهها الكبير من رضوي لفرط حبها وتعلقها به. فآمنت بفكرة أننا نشبه مع الوقت من نحب، تتمازج ملامحنا، تلتقي عيوننا، تختلط ابتساماتنا فلا نعود نميـز شـفاه بعضنـا عن شـفاه بعض (لم تخفض هنـد طرفها عن وجه هنـاء، متفحصـة وقـع كلامها عليها أو ربمـا مدى صحته، ففرت هناء بنظراتهـا هاربـة، مدركـة نيـة محدثتهـا وما ينطوي تحـت كلماتها من معـان، ولوهلـة انتابهـا خاطـر أن تكـون هي الأخرى تشـبه من تحبه، شعرت بالخجل من بلادة هذا الخاطر، أمعقول أنها قد تشبه ريا...؟ خشيت أن تكمل اسمه لئلا تتسرب حروفه إلى أذن هند، التي كانت

مشنفة الحواس، تمعن النظر إليها).

تعيش شاه زنان في كنف رضوي ببحبوحة عاطفية، لا يرد لها طلباً، وما مجيئنا اليوم إلى هنا إلا نزولاً عند رغبتها في تأدية مراسم زيارة عاشوراء. أحيانا أَجد في نفسي غضاضة منه، وأحسد ابنتي دون أن أشعر.

آه يا هناء لم أكن موفقة في... (ترددت في إكمال عبارتها، لكنها أردفت بشيء من الخجل بانت ظلاله على قسمات وجهها) لم أكن محظوظة مع الرجل، زواجي بكليهما كان نوعاً من التعويض لهما وسد غياب امرأة أخرى (صعد الدم إلى صدغ هناء دفعة واحدة، فأحست بدبيب حرارة يسري في رأسها، ثقل لسانها، تزاحمت الأفكار، تقاطعت، تراجعت، لم تتفوه بكلمة واحدة، رغم تدافعها على طرف لسانها، حاولت جاهدة أن تشيح بنظرها عن محدثتها التي تراقب كل إيماءة تصدر من هناء) لم أحظَ بالحب الذي أستحق، كنت الخيار الثاني دوماً.

لم يمضِ حينها على زواجي شهرٌ، وأنا أتخايل في مشيي عروساً مزدانة بزينتها مغتبطة، عندما سمعت همسه مع أمه، كان باب غرفتها موارباً أتاح لحديثهما أن يصل إليّ. لم يكن في نيتي استراق السمع، كنت في طريقي إلى غرفتي حين تعثرت باسمكِ، وأمه تقول:

هند فتاة طيبة، معها يا ولدي ستنسى هناء، لم أستطع أن أخطبها لك وقلب أخيك الضعيف معلق بها، أنت كذلك لن تقبل شهامتك أن تتأبط من يحبها أخوك! مع الزمن ستكتشف يا ولدي أن الحب هو كذبتنا الكبيرة، وأن صلاح الزواج في المودة والتفاهم، لا الحب الذي ما تلبث شرارته أن تخبو.

طأطأ برأسه ورد عليها بنبرة ساخرة مرة بقيت مرارتها عالقة في فمي قائلاً:

وها نحن كلانا قد خسر هناء، أنا وقد تخليت عنها لأجله، وهو تخلى عنها لأجل قلبه الضعيف، الذي لن يقوى على مجاراة حبها، بعدما أخبره الطبيب بوجوب عدم تعريضه إلى أي إجهاد وانفعال... إنها سخرية القدر... القدر يا أمي.

وقبل أن يخرج، فررت إلى غرفتي وقد هوى مني فؤادي عند عتبة ذلك الباب، لم يستطع رياض أن يجده لي، كما في القصص، فواءمت نفسي مكتفية بالمودة والعشرة اللتين نصحت بهما أم رياض لأجل زواج ناجح، حارقة كل أحلام سندريلا في الحب قرباناً لذلك الزواج.

تحرقت غيرة وفضولاً حتى رأيت غريمتي... حتى رأيتكِ يا هناء (وسمرت عينيها في عيني هناء الباحثتين عن وسيلة لدرء فيض الدموع) عندها حمدت الله كثيراً، شعرت ببعض من التعويض والرضا، فظلم أن تتفوقي عليّ في الحب والجمال.

التزم رياض بوعده لأمه، وأغلق باب قلبه بوجه الحب، محترماً وجودي في حياته، وقلب أخيه الضعيف الأناني، فتحاشى أن تجمعك به الصدفة، وإن حصلت أحياناً يبقى مزاجه معكراً بعضاً من الوقت، لكنه تعلم بالمران كيف يجعل من عقله إسفنجة تمتص كل أشجان القلب وهمومه، عاصراً إياه على الدراسة والبحث.

أنهت هند عبارتها الأخيرة متأوهة، تحاول أن تفك طلاسم تعابير ارتسمت على محيا هناء، التي أقسمت على دموعها أن تتحجر في مقلتيها (يا الله أبعد هذا العمر من التساؤل والحيرة!... أعرف جواب

السؤال الذي أرقني سنوات طويلة، قضّ مضجع ليال من الدموع، أبعد هذا العمر؟ يا رياض... أعرف سر ابتعادك، قسوتك، هجرك...) وأمسكت بإرادة استجمعتها عن خمسين عاماً خبرة في معترك الحياة، دموعها، التي تلجلجت في عينيها.

حاولت هناء أن تغير الموضوع، لكن هند بقيت مصرة على أن تظل جعبتها فارغة بعد طول امتلاء، فأردفت قائلة وهي لا تزال تمعن النظر إليها:

لكنك محظوظة يا هناء، فقد انتقل حب رياض لك إلى ولديه بالوراثة، لم أنوه ولو مرة إليه بذلك، لم أخبره بما سمعت، أبت كرامتي أن تخدش بمواجهته، أن أفقد سطوتي كزوجة يحترم مشاعرها، تصبرت بالأمل في أن ينسى حبه المراهق مع الوقت، فنسيت أنا أمر هذا الحب المزعوم، ظانة أنه هو الآخر قد تجاوز تلك المشاعر إلى أن لطمتني محفظة نقوده الجلدية على رأسي منبهة، عندما برزت لي صورتك من قعرها حين كنت أبحث فيها عن قصاصة وصل قال إنها في محفظته. شعرت حينها أن عقرباً قد لدغ أصابعي وشل حركتي، ألم جثم بصورة مفاجئة على صدري، أخذت الوصل مسرعة بعد أن أرقدت الصورة في محلها، وأرجعت الجديلة إلى الوراء، رافعة الغرة عن جبين صغير وحاجبين خفيفين يرقدان بعفوية فوق عينين متأهبتين لامعتين، تنظران إلى أيامهما القادمة بفرح.

تملّكَ هناء خجلٌ شديدٌ، لكنه لم يمنعها من محاولة تذكر تلك الصورة المقصودة، وأخذت دون إرادة منها تبحث في أرشيف الذاكرة عن مواصفات هكذا صورة. وبعد جهد رزح تحت وطأة ومراقبة عيني محدثتها، اللتين ترصدان كل حركة، تذكرت هناء هذه الصورة

القديمة التي التقطتها وقبعت في هوية السماح لها لدخول الامتحان النهائي، متذكرة معه مدى التوبيخ الذي طالها من أمها، عندما لفهم الليل بعتمته في طريق العودة من المصور، متهمة إياها بإضاعة نصف النهار أمام المرآة. إلا أنها لم تتذكر كيف وصلت إحدى هذه الصور إلى محفظة رياض (لا أذكر أنه طلب مني يوماً ذلك) وتنبهت هناء إلى نفسها خجلة من الحيرة التي لا بد وأن ارتسمت على ملامحها.

أحست هند بصدق ما باحت به قسمات هناء وخلجاتها فقالت:

حينها أدركت أنه لم ينسَ ما أطلقت عليه يوماً حباً مراهقاً، تزول أعراضه عند تخطي عتبة العشرينيات، فآثرت أن نغير عتبة البيت على الرغم من ممانعة عمتي أم رياض. لكن تلك الصورة بقيت قابعة في المحفظة قرب قلبه حتى آخر يوم له، رغم أني قد أهديته أكثر من مرة محفظة جلدية على أمل أن يترك تلك القديمة بما فيها.

عبثاً حاربت ظلالك المرسومة على طرف عينيه، نظرته الهادرة سارحاً مع ابتسامة مختلفة تعلو محياه، تقاطيع وجهه والحمرة التي تصطبغ بها شحمة أذنه حين يرد على سمعه اسمكِ.

أوه... ماذا عساي أن أقول بعد أن اعتصرت السماء مياه غماماتها البيضاء في رؤوسنا، فنزلت سيلاً من الأخاديد والتجاعيد على أدمة وجوهنا.

ساد صمت بعد طول اجترار لحديث تلاقت فيه الهمهمات، الحسرة والتأوهات على رجل فاضت روحه، ولم تفض ذكرياتهما أو قلباهما منه. تنحنحت هناء، ومدت يدها باتجاه صينية الشاي استعداداً لتقديم وجبة ثانية، ونفث زفرات حارة خانقة جثمت على صدرها.

وحين عادت ثانية تحمل الصينية بيد وهمَّ الإجابة في اليد

الأخـرى علـى سـؤال تهربـت مـن الخـوض فيـه، وماطلـت قـدر ما استطاعت، متحاشـية عيني هند اللتين كانتا تبحثان عن جواب سؤال هـي لـم تسـأله بعـد، رغم أنه واقـف على طرف لسـانها مفرطٌ بدوره عدة مرات.

صمـت محفـوف بزوبعـة سـؤال، اقتربـت مـن هنـاء، لا مناص منها حين باغتتها هند متشـوقة خائفة، تتراجع كلماتها عن مواضعها، فسألت بصوت مخنوق متهدج ودمعة لمعت في مقلتيها:

- كيف حال ولدي؟... لم تخبريني بعد؟!

تلـكأت هنـاء، وهـي تطقطق أصابع يديها وتدعـك حافة ذقنها، حين قالت:

- مسعود بخير، هو يعمل في سلك الجيش، وقد نويت جادة أن أزوجه بإحدى بنات إخوتك، لولا عناده وإصراره على تأجيـل ذلـك إلـى مـا بعد الخـلاص من داعش واسـتقرار الوضع، الذي لا يبشر بخير. يحبها، لكنه لا يود أن يحيلها حبه إلى أرملة تجر خلفها طفلاً أو اثنين.

هو الآن شـاب، لا يمشـي دون أن تلتفت نحوه الأنظار، رجولة تقطـع أنفـاس الفتيـات أعجابـاً، زيه العسـكري يزيد من مهابة شـكله ومظهره.

وتوجهت نحو نقالها، لتطلعها على صور ذلك الشاب المتفجر قـوة وعنفوانـاً، أعطـت هنـاء نقالها هنـداً لتبصر عن قـرب ابنها الذي ترعـرع بعيـداً عـن حضنها، ومـن أول صورة هطلـت دموعها مدراراً وهي تقلب بين صوره ومراحل نمو ذقنه وشاربه. أدركت مدى الشبه الذي نما بينه وبين أبيه، والفرق أن مسعود أطول قامة وأنحف، لكن

العينيـن ونظراتهـا الصامتة الحزينة تحكي القصة نفسـها، تأملت وجه ابنهـا، حفظـت كل تقاطيـع وجهـه في ذاكرتها وذاكـرة نقالها، بعد أن طلبت من ابنتها شاه زنان ذلك.

لم تكد هناء أن تلتقط أنفاسها خشية السؤال القادم، حتى بادرتها هند قائلة:

– وسعيد لم تخبريني عنه شيئاً؟!

فأطرقت برأسـها، متحاشـية نظرات هند المترقبة واحمرار أخذ يتصاعـد علـى وجـه هند الشـاحب. لاذت هناء بصمتهـا، تبحث عن كلمات تنجدها وتخفف من وطأة ما ستقوله لأمه.

فخرجـت الكلمـات مـن فمهـا ثقيلة يتعكّز بعضهـا على بعض، وهي تروي لهما حادثة موت سـعيد التي لم تشـهد تفاصيلها قدر ما شهدت تبعاتها وما خلفه غيابه الحاضر من فراغ في فؤادها.

الطـرق تتقاطـع، تلتقـي، تتـوازى لتفتـرق بعيـداً كل فـي اتجاه، وها هي هناء الخصيب شـاردة الذهن، بللت زخات المطر المتقطعة عباءتها، التي لم تستطع أن تحفظ جسدها من الارتعاش برداً. وقفت لا تلوذ على فعل شـيء، خدار يتسـلل من باطن قدمها الموحلة إلى أسـفل رأسـها، تتماوج الأفكار والذكريات كما الشـوارع التي بدأت تغرق مستغيثة.

شدّت انتباهها كلبة يغطي الوحل لونها الحقيقي، تقطر ماءً، منهكة نحيلة، تحمل بين أسـنانها جرواً صغيراً منكمشـاً على نفسـه مغمض العينيـن، لتلـوذ بـه تحت إحدى البسـطات الخشـبية المغطـاة بالورق المشـمع. اسـتمرت تراقب الكلبة الدؤوب في ذهابها وإيابها كل مرة بجرو خوفاً عليهم من المطر الذي اسـتنزف قواها دون أن تستسـلم إلا بعد أن جمعت الجراء الستة حولها تحت البسطة، يمتصون حياة مـن بيـن جلـد وعظـم. تدحرجت دمعة صغيرة بيـن تضاريس وجهها المبتـل، هـي نفسـها لم تشـعر بها، لكنها شـعرت بمـرارة تغزو فمها، فبلعت ريقها، مدركة أنها لم تأكل شيئاً منذ الأمس. فتضاعفت شفقتها على تلك الكلبة، مسـتغرقة في شـرودها، لا تجد جواباً لسـؤال يطرق باب العقل بإلحاح، كيف لم تستطع أمها أن تدرك حقيقة حمل ابنتها منذ البداية! أين كنت يا وفاء لاهية عن ابنتك؟ وبطنها تتكور ومشيتها

تثقل! الآن... عرفت سر اختبائها المتعمد مني، لم ألقِ بالاً حينها رغم أني افتقدت وجودها معنا على السفرة، لكن أمها عللت ذلك بتوعك مزاجها مرة أو فقدان شهيتها مرات أخر. لم أدرك أن في البيت قنبلة موقوتة تعشّش مع أحلام وفاء بالهجرة والحياة الرغيدة في ألمانيا.

ظننت أن العمر والزمن كفيلان بتغييرك، بنزع قشور الأنانية التي تحيط بقلبك، آه كم كنت مخطئة في تقدير ردود فعلك يا أختي وحجم مخيلتك، التي رسمت خطة لا أعرف تفاصيلها إلى حد الآن، إلا النزر اليسير من على شفاه أخت رعد في ليلة زفافكِ منه، حين أخبرتني هامسة (كان يفترض أن تكوني أنتِ العروس، فأخي رعد قد بعثنا لخطبتك أنتِ، ويبدو أن والدتك قد أخطأت في سماع الاسم، ملبية طلبنا بوفاء التي جلست أمام أمي بقدها الممشوق وشعرها البني المسترسل عند كتفها، مثيرة إعجاب والدتي التي نبهتها إلى اللبس الذي حصل، لكنها اقتنعت بوفاء كنة لها بدلاً عنك، لتخوض بعد ذلك حرباً باردة مع أخي الذي رفض ذلك أول الأمر، لكنه اقتنع، لترجح كفة البياض على السمار كالعادة).

أدركت تلك الليلة مدى أنانية وفاء ونرجسيتها، التي لم أعول عليها وأجد في كل مرة لها عذراً مختلفاً.

عندما زفت أمي لي خبر تقدم رعد ابن محلتنا إلى وفاء، دُهشت من ذلك، وغالطت نفسي التي ظنت أنه كان معجباً بي لا بوفاء، نظراته، ترقبه شبه اليومي لموعد قدومي إلى ناصية الشارع حيث بيتهم القريب من مكان ركوب الحافلة، ووفاء نفسها لمحت إلى ذلك عدة مرات، حتى إنها أشارت مرة إلى قلة ذوقه في النساء غير آبهة بمشاعري.

هي أخذت من أمي حسـن الملامح وبياض البشـرة، تاركة لي منها حلو اللسان والمعشر، الذي كسبت به ود أهل الحي وإعجابهم، الأمر الذي أثار حفيظتها، وأضحكني رد فعلها من ذلك.

لم أنزعج من تحايلها واختلاقها لسوء الفهم الذي أوقعت أمي وأم رعـد فيـه، فمـا كان رعـد أو أي رجل آخر يهمني من أمره شـيء، رغم ابتعاد رياض وزواجه من أخرى، وتمنيت السعادة لها في ظل من اختاره قلبها شريكاً لها، طاوية ما سمعته من أخت رعد طي الكتمان، ولـم أنـوه ولـو مـرة به. فليكن الفوز للأبيض على الدوام، ما دمت قد خسـرت أهـم نزالاتـي. لكـن وفاء تمـادت في إطعام أنانية لا تشـبع، ورغـم توبيـخ أمـي لها وعدم رضـا زوجها مما تفعله، إلا أنها أصرت علـى المطالبـة بإرثهـا فـي بيتنـا الذي نسـكنه أنا وأمي. لـم يكن لدي حينها إلا نصف المبلغ بعد أن بعت ما أملكه من مقتنيات ثمينة بعض الشـيء، وباقـي المبلـغ اقترضتـه من صويحباتي لألقمـه فم وفاء بعد أن وثقت ذلك رسـمياً في سـجل العقار لأتفرد بملكية البيت وحدي حسبما نصحني بعضهم.

أول الأمر كرهت ما فعلته بنا مقاطعة إياها لفترة من الوقت، لكن حين شدت الرحال صوب اليمن وزوجها لهجرة نحو الرزق، بعد أن أطبق الحصار والفاقة كماشـتهما على رقاب العباد عذرتها، وغفرت لها الوسيلة التي تبررها الغاية.

لم يكن رعد متحمساً لفكرة الهروب إلى بلد آخر عبر جوازات مزيفة، لكنه لا يملك من الحيلة شيئا سوى الموافقة والنزول عند كل رغبة أو نزوة لوفاء آخرها إلحاحها عليه لأجل الهجرة هذه المرة إلى ألمانيا، فسافر هو وابن أخيه، زوج ابنته، إلى هناك ممهداً لقدومها مع

ابنته وابنه، شاقاً طريق البحر الخطر، ماشياً على أطراف حدود ودول طاردهم رجال شرطتها وحرسها، واضعاً روحه على كفه لأجل راحة وفاء وخيالها الجامح الذي لا يستكين أو يهدأ، فبعد أن خسروا ما جمعه من مال طيلة فترة مكوثهم في اليمن في مناقصات ومشاريع لم يكن أهلاً لها، دفعته إلى معظمها وفاء التي لم تزل تعاني من آثار الجوع والحرمان، ذاك الذي حمله إلينا الحصار بجلبابه الأصفر المغبر، وحربنا أنا وأمي لأجل أن لا يطالها منه إلا قليله، دافعة شبابي الغض إلى عنابر المستشفى وصرير أسرة تنوء بحملها، مع أمي التي وهنت عظامها وذابت أدمة يديها من المسح والغسل.

تشاركنا أنا وأمي ذنب إفسادها وجعلها أنانية، لا تحب إلا انعكاس ظلالها على المرآة، ولا تستشعر بوجع أحد أو تعبه، دللتها أمي بذريعة اليتم، وأنا لا أكبرها سوى بثلاثة أعوام. ثياب العيد الجديدة كان لها الحظ الأوفر فيها، ففرحة اليتيم لا تعادلها فرحة! مستلزمات المدرسة من دفاتر وحقيبة وثياب لا بد أن تُوفر لها كل عام، حتى لا تشعر بفقدان الأب الذي لا تشعر بفقده إلا في يوم الشهيد حين تكرمها مديرة المدرسة بهدايا عينية تحت أنظار كل طلاب المدرسة، فتزداد نشوتها وخيلائها بنفسها على وقع تصفيق المدرسة لها وتعاطفهم معها.

تحالف الجميع على تدليلها وتلبية كل رغباتها تحت تأثير سحر عينيها اللوزيتين، ونعومة ورقة بشرتها البيضاء العاجية. لم نكن نبدو كأختين، الشبه بيننا يتباعد سنة إثر سنة، لتغدو هي حسناء العائلة، التي تدهش معظم الغرباء من صلة الدم بيننا، ناعمة لم تلمس أطراف أصابعها أي إناء أو طنجرة في المطبخ، خشية على أظافرها

من التقصف، أو يدها الناعمة من التشققات. فنتبادل الأدوار أنا وأمي على العمل داخل وخارج البيت.

آه يا وفاء كيف... كيف طغت أحلام نرجسيتك على أمومتك؟ ولم تتنبّهي لابنتك كما تتنبّهين عند ظهور أية بثرة بسيطة على بشرة وجهك. لم أظن يوماً أن أنانيتك قد تطال نتائجها أبناءك أيضاً.

أستطيع أن أتفهم تقلب مزاجك، وحدة طبعك مع رعد زوجك الذي لم تغفري له أنه أعجب بأختك ولم يتنبه لحضورك البراق وسنى وهجك، شرّقتِ الرجل وغربته دون أن يطرف لك جفن، أدرك كل ما فعلته معنا، لكن ما يصعب علي أن أستوعبه كيف أهملتِ أمومتك إلى هذا الحد!؟ أين كنت حين كان بطن ابنتك يمتد أمامها، فما أخفته بالثياب كان على رادارات الأمومة أن تكشفه في وقت مبكر... أمعقول، أمعقول أنك تعلمين من البداية ولم تخبري أختك؟ لا... لا أعتقد (وتعوذت من الشيطان) لا أظنك يا أختي تتهاونين في هكذا مصيبة، لم تأخذي على عاتقك يوماً حمل أي مسؤولية فلا أتوقع أن تتواطئي مع ابنتك.

لماذا عليّ دوماً أن أتحمل عنك وأحمل كل أخطائك، أدفع أنا بالذات ضريبة نزواتك وأحلام يقظتك التي لا تنتهي، أية أخوة هذه؟... لماذا يا إلهي؟ لماذا هي كانت يتيمة وأنا لا؟ مادامت كلتانا من الأب نفسه! الذي بقيت أمي تعيش تحت ظلال سواد فقده سنوات طويلة، لماذا لم تكبر اليتيمة حتى بعد أن تزوجت وأصبحت أماً؟ لماذا كل هذا التحيّز للون الأبيض؟ المأساة أنا نفسي تحيزت له، وانصعت لطغيانه وجبروت سطوته.

أحببتها كأني أمها الثانية، فنالت عطف ودلال اثنتين، إن أخفقت

في الحصول على ما تريده من الأولى لبت الثانية لا محالة، ثم جاء بعدها رعد ليقوم برصف وتعبيد طرق وأزقة أحلامها الحبلى برغبات تتوالد وتكبر حتى لا يعود يسعها الوطن ولا حدوده.

كانت وفاء هي بوصلته ومرشده، الذي أخذه هذه المرة بعيداً للغاية يحمل بين جوانحه في برد الغربة حلم وفاء الذي ينعش قلبه ويمنيه بفرصة اللقاء القريبة.

لم أعهد رجلاً مثله، لم يكل من تلبية رغبات زوجته حتى بعد عشرين سنة من زواج تذبذب صعوداً ونزولاً، تتحكم فيه وفاء ومزاجها المتضارب، لم يشتك ولو مرة أو حتى يعارض، رغم تذمر أمه المتواصل وحملها على تأليبه ضد زوجته، التي بالغت في أحيان كثيرة في جموحها.

تساءل بعضهم ولا سيما الجيران عن سر انزواء ولديها وعدم اختلاطهما مع الآخرين، بالطبع كان لديّ جواب هذا السؤال، أو على الأقل تخميناً له، فهي قد ربتهما بعيداً عن دفئ حضنها ورائحة الأمومة، لم يشعرا بحنانها أو اهتمامها الذي انصب بعيداً عنهما، فكبرا وعقدة فراغ الأم وغيابها المعنوي تزداد سوءاً، لتحد من انفتاح طباعهما وتواصلهما، لا سيما عندما أقاما فترة ليست بالقصيرة في اليمن، وتنقّلا عبر محافظاتها بحثاً عن فرصة عمل أوفر، تتيح لهما جمع المال بصورة أفضل. فنشآ دون أصدقاء مقربين أو حتى أقارب، فانطوى كل منهما على ذاته. عاشت هدى طفولة ومراهقة اعتمدت فيها على خبرتها الفطرية البسيطة دون توجيه جاد من أم لا يتعد منظارها عن حدود قدميها، ولم تدرك آنذاك ما تمر به ابنتها من تغيرات وانفعالات بحكم عمرها الغض، مما ساقها إلى تجربة حب

مـع ابـن الجيـران اليمنـي، ورفض أهله لتلك العلاقة بشـدة، مطالبين أباها رعد بالعودة إلى دياره بعد أن هرب المراهقان معاً بنية الزواج، ووضعـا والديهمـا أمام قرارهما الصبياني. فعاد رعد وعائلته الصغيرة إلى البلد قبل أن تتزوج ابنته من ذلك الشـاب، الذي وصل إليه أهله قبل أن يدخل إلى كماشـة الزواج، ويعلق مع فتاة ليسـت من بلده أو (كما كان يردد أهله بأنها ليست من قبيلته).

فـي العـراق زوجهـا لابن أخيه مع أول كلمة نطق بها أخوه، ظناً منـه أنـه يقـدم العلاج لابنته، التي انزوت على نفسـها ولم تجب أباها بالرفض أو بالإيجاب، لكن والدها عدّ صمتها علامة رضا.

لـم تعـد المسـافات البعيـدة كما السـابق عائقاً، فاتـت رعد هذه المسألة، معتقداً أن هدوء ابنته وانشغالها بالعوالم الافتراضية ووسائل التواصـل الاجتماعـي قـد أنسـاها حبيبها، الذي تقضـي معظم الوقت تحادثـه لا سـيما بعـد سـفر زوجهـا، مشـجعة فكرة غيابـه عنها تحت ذريعة البحث عن حياة أخرى تناسبهما، بعد أن منحته كأمها تصريحاً لخوض عباب بحر تساقط فيه المئات قبل أن يدركوا أحلامهم بالجنان الخضراء، تاركين خلفهم رمالاً ووطناً نفد مخزونه في العطاء.

كانت وحبيبها اليمني يرسـمان خطة محكمة للهرب بعيداً هذه المـرة، لـولا انجـراره خلـف رغبة الأهل الملحة فـي تزويجه بإحدى قريباته، الأمر الذي أثار آخر نقطة غيظ فيها، فأقبلت في ساعة شيطان، على ولدي الذي كان كبشـاً غبياً سـاقته إليها عينان سـوداوان كحيلتان تلمعان بالوعود.

هـدى أخـذت من جمال وهيئة أمها الكثير، ولربما أخذت أيضاً دون أن تشعر قلبها الأناني البارد، الذي طالما هي عانت منه.

لـم يمـر انتقامهـا من حبيبها في تلك الليلـة بهدوء، رغم أنها قد نسـيت ما فعلته ليلاً، ومع تأنيب ضمير بسـيط تلاشـى مع قرص دواء مسـكن في الصباح نسـيت تماماً، وأمسـى حادثاً عرضياً، كحمى ليلية خفيفة تلازم نومنا لا نشعر بها، لكن هذه الحمى قد تركت بثرة على الوجـه عنـد زاويـة الفـم. ولـم تتنبـه لأعراضها إلا بعد شـهرين ونيف عندما صار الغثيان الصباحي عادة يومية.

لم تجرؤ أن تخبر أحداً بأمرها، حتى أمجد نفسـه لا يعلم شـيئاً أو ربما لا يتذكر من أمر تلك الليلة شـيئاً، فقد كان مخموراً وذاكرته سكرى.

حاولـت التخلـص مـن عبئهـا بالبحـث عبر مـا تقدمه لهـا ثورة المعلومات التي تتنافر أمامها عبر مفاتيح الحاسوب، لكن الأمور لم تسـتقم ولـم تجدِ أي نصيحة معها، حتى أنها كادت أن تودي بحياتها بعد أن جربت أكثر الطرق خطورة وتطرفاً.

بكـت أمامـي بحرقـة وهـي تتلوى من الألم، زحفـت إلى قدمي تطلب النجدة والمغفرة، لم أتجاوب مع دموعها أو قصتها، ربما من فـرط القصـص التـي وردت على شـفاههن مبلولـة بالدمع والندم، أو ربما لأنه في هذه المرة كان أداة الشيطان هو ابني.

وبختهـا علـى سـكوتها الـذي عقد الأمر، وفسـح المجال لتلك البـذرة الشـيطانية أن تصبـح ثمرة ألقمتها المكب الطافح بالأوسـاخ. تركتها على فراش الألم ترقد مع خيبتها فارغة الرحم والأمل.

واسـتمرت تحـدق ممعنـة النظـر فـي الجـراء الصغيـرة، وكيف تحتمي بأمها من شـرور الطبيعة وقسـوتها، الأم التي نتأ عظمها وبان من تحت الجلد هزيلاً وضعيفاً. شـعرت بالحسـد يتحرك بين جنبات

صدرها، هامسة لنفسها:

ليت وفاء كانت بنصف أمومة هذه الكلبة، لما وقع ما لم نأمن عقباه.

وبختها بقسوة شديدة لم أعهدها فيّ من قبل تجاهها، لمتها بفظاظة على أنانيتها المفرطة وانشغالها المستمر عن ولديها بأمور ثانوية لا تتعدى رغبتها المتذبذبة بين أي صبغة للشعر تناسبها، أو التحري عن الخطوط الدقيقة التي بدأت زحفها نحو بشرة وجهها الرخامية البيضاء.

أفرطت وفاء هذه المرة في البكاء، وهي تصغي لوقع كلماتي النازلة عليها كالمدفع الرشاش، محاولة التبرير من بين مستنقع دموع وقعت فيه عيناها الملبدتان بالخوف والقلق من القادم إليهم.

قرأت في عينيها خوفاً وانكساراً لم ألمحه من قبل، فأحسست بالندم والخجل من غلظة لساني وقلبي عليها. آه يا أمي كلتانا أوقدت نار نرجسية وفاء وحبها المفرط لذاتها، كلتانا علمتها على الأخذ دون أن تفكر بالسداد، مهدنا لها طرق الحياة، عبدنا الحفر والمطبات، ثم جاء زوجها ليكمل ما بدأناه، حتى وإن اضطر لحملها على كتفيه.

لطالما حرت في أمر رعد متسائلة (ألهذه الدرجة يفرط في حبها؟)، فأتعوذ من الشيطان خشية عليها من عيني، وسؤال يحوم في خاطري. بالطبع لا أستطيع الجزم بمدى حبه لها، لكني أعرف أنه مأخوذ بها ومتعلق، رغم برودة إحساسها تجاهه، وغزارة أحلام يقظة تمطرها عليه كل حين، فلا يملك إلا السمع والطاعة جواباً.

هي لم تستطع نسيان أنه لم يعجب بها أولاً، ولم يلفت حسنها انتباهه، وأن أختها الكبيرة كانت من نشد أمه لخطبتها. تزوجت منه

ليس بدافع الإعجاب به فقط، بل لأجل صورتها التي قام بهزها أمام مـرآة نفسـها، وهـا هـو يدفع الثمن منذ تلـك اللحظة، فلا أحد يصمد أمام قهوة ليل عينيها، وصباح وجهها المشرق.

تركتهـا مـع ابنتهـا تجر نفسـها من صدمة وذهـول كاد أن يوقف قلبها، بعد أن شحب وجهها من هول المفاجأة. فوقفت أمامي تبتلع ريقها، مرتجفة الأطراف تخبرني بحروف وكلمات متقطعة مبتورة عن آلام طلق هدى، تسمّرت في مكاني ممددة على فراشي أطرد كابوس ما سمعته. فركت عينيّ بإلحاح كي أصحو من كابوسي، لكن وفاء تلح بشـفتين مرتجفتين ترديد كلماتها بلا وعي، فهي الأخرى قد صحت من نومها فزعة على صوت أنين وألم هدى، الذي لم يدر في خلدها أبداً أنها آلام طلق تحاصر ابنتها التي غاب عنها زوجها منذ سنة.

يطـال المطـر هناء بشـكل كامل، وهي تتعثـر بخطواتها بين حفر الوحل، مثلما تطال رمادية الأجواء، ووجوم الوجوه هذا الصباح.

لا شـيء تسـتظل به فوقها إلا سـماء تلتحف غيومها، وشمس ما أن تطلع برأسها برهة حتى تعاود نومها ثانية.

اقتربـت إحـدى حافلات النقل العـام، يتناثر من تحت عجلاتها رذاذ مـاء المطـر الـذي يتحـول إلى وحل مـا إن يلمس وجه الأرض، فتضطـر هنـاء إلـى التراجع قليلاً مبتعدة عن مسـار الحافلة المتخبط، ثم تصعد إليها دون أن تسأل السائق عن وجهته.

مـاذا جنـت طـوال هـذه السـنوات من السـؤال؟ فلتجـرب الآن دون أن تسـأل أو تتقصـى عـن الطريـق. دكاكيـن وباعـة متجولـون علـى الجهتيـن، بضائع وسـلع تتجاوز الأرصفـة، فارضة على المارة سـيراً متعرجاً، لوحات إعلانية ثبتت بطريقة عشـوائية على واجهات المحلات وأعمدة الكهرباء، التي اغتسلت منذ الليلة الماضية، لتظهر ألوانها الحقيقية بعد أن غطتها عتمة الغبار وحر صيفه.

تلـوّت الحافلـة بيـن الشـوارع مكابرة على الوحـل والماء الذي غطـى وجوههـا، ثـم توقفـت في مناطق مختلفة حسـر المطر شـكلها وزيـف بهرجهـا، فضاعـت علـى هناء فرصة التعرف إليهـا من النافذة المتسخة، وعندما توقفت الحافلة في المرأب حيث محطتها الأخيرة،

تنبهـت إلـى أنهـا الراكـب الوحيد الـذي لا يزال ممسـكاً بعينيه طرف النافذة، لا يروم فعل شيء.

تسمرت على كرسيها لوهلة، شردت بذهنها تبحث بين خطوط الحافـلات المصطفـة عـن معالـم المـكان قبل أن تطـأه قدماها، لكن السائق مد يد العون لعلامات استفهامها منجداً، حين قال: هذا كراج ساحة أم البروم.

ترجلـت مـن الحافلـة ملؤهـا الحيرة والشـك مما قاله السـائق، أمعقـول أن المطـر قـد فعـل فعلته في رأسـي... كما مـع تلك الأبنية المنزوعة اللون!؟

لطمت نسـائم الهواء باردة وجهها، وسـرت قشـعريرة في بدنها الرطـب، تعثـرت قدماهـا بطرف عباءتها المثقـل بالوحل وهي تبحث بين الطوابير عن الباص الذي سيقلها إلى المستشفى حيث تعمل.

كاد أن يسير، فاحتلت المقعد الوحيد الباقي آملة أن تصل سريعاً حتى يتسنى لها تغيير ملابسها بأخرى جافة.

سـرحت بها الذكريات، شـريدة مبتلة طفت على سـطحها وجوه لا تخشـى المطـر ولا تتغيـر ألوانهـا أو ملامحهـا منـه. الطريـق إلـى المدرسة كان موحلاً بعد ليلة مطر غزير، تأخرت في النهوض صباحاً فاسـتعجلت قدميهـا اللتيـن تزحلقتا بصورة مفاجئـة، فهوت بلا حذر علـى الأرض هـي وحقيبتهـا. ضحك الصبية الذيـن كانوا على مقربة منهـا، وهـي تقبـع سـاكنة في مكانها محرجة وقد غطى الوحل قسـماً كبيـراً منهـا، لكـن كمـا الأفلام، من بينهم تقدم نحوها، سـاعدها على النهوض، حاملاً حقيبتها وعائداً بهما إلى البيت، لـم تنبس ببنت شفة، مطرقـة برأسـها، تتابـع عيناهـا مطبات الطريق وحفـره، غير مدركة أن

قلبها هو الآخر قد انزلق في مطب حبه، دون أي أمل بالشفاء أو التعافي.

بقيت هذه الحادثة عالقة على حبل غسيل الذكريات رطبة لا تجف، يستنهضها في كل مرة نزول المطر، وطفح الشوارع به، واهبة إياها ابتسامة تحط على شفتيها دون إرادة منها مع أول زخة مطر.

عند الباب أخذت منه حقيبتها ودلفت على عجل تلاحقها كلماته: غيري ملابسك حالاً، لئلا تمرضي.

ورغم أنها قد اتبعت نصيحته تماماً، إلا أنها مرضت... مرضت بحبه، ظناً منها أنها مشاعر المراهقة تلك التي قرأت عنها في الكتب. لكنها تبينت مع الوقت أن الشباب قد ولى، ومشاعرها تجاهه لا تزال على حالها فتية في أول عنفوانها.

خلعت عنها ثياب المدرسة، وتلفعت بعباءتها الرطبة مترجلة بعيداً عن الحافلة، حين صاح السائق بصوت ميكانيكي مبحوح: المستشفى... ابن غزوان... المستشفى.

فبادره صوت من آخر الباص قائلاً: نازل.

كانت صالة الولادة وعلى عادتها تغص بالأنين والصراخ الذي اعتادت سماع سمفونيته كل يوم، عندما استوقفها حديث زميلاتها الغاضب حول هروب أحدى الشابات من صالة الولادة، تاركة ثمرتها لقمة سائغة إلى فم القدر. تكفلت إحداهن بالمولودة لأجل أخذها إلى دار الأيتام الحبلى بهم.

تفحصت وجه المولودة برهة هامسة لنفسها «تتشابه وجوه الضحايا، وإن اختلف وجه الجلاد. أتراه أنا الجلاد هذه المرة أم أمه؟ ماذا فعلت!؟ كيف رميته!؟ أين كان عقلك؟»

وتدحرجت بها الذكريات، وهي تصغي لحديثهن عن مدى جمال ووداعة تلك الشابة الهاربة، إلى إحدى صباحات العمل اليومية حين جاءتها لاهثة معصوبة المعصم، شاحبة، تتلفت حولها، يملأ عينيها الخوف والذعر.

لم تسعفني ذاكرتي أول الأمر في التعرف إليها، فقد مضى على آخر مرة قابلتها أكثر من سنتين. إلا أن تلك الملامح الجميلة والنبرة العذبة يندر تكرارها، فتداركت ذلك قائلة: نور... ابنة القمر، ما الذي أتى بك إلى هنا؟! وأنا أتفحص معصمها عن كثب.

لم ترد عليّ وحسرت عينيها المتعبتين إلى الأرض، كتمثال أبنوسي استنزف صانعه فيه كل جهده وموهبته.

واستأنفت سؤالي قلقة: ماذا يجري معك يا نور!؟ هلا أخبرتني؟

تلفتت حولها باضطراب قبل أن تقول: ليس هذا بالمكان المناسب.

اضطرابها زاد من دهشتي وقلقي فلم أتكهن بما حدث معها، لكني جررتها من يدها الأخرى ورائي وأنا أتمتم مع نفسي بأنصاف مقاطع وكلمات.

أخذتها إلى أحدى غرف استراحة الممرضات، بعد أن تأكدت من خلوها، فأخبرتني نور، وعيناها عالقتان بمقبض الباب في حالة تأهب، عن فشلها في التخلص من حياة تضيق بخناق والديها عليها. لم أستطع أن أصدق ما تفوهت به نور، فتأكدت من حرارتها وأنا أجزم أن الآخرة قد اقترب موعدها، لم يتسع عقلي لهكذا حكاية، فاستغفرت الله كثيراً طالبة منه اللطف والصفح بعباد فقدوا آدميتهم في رحلة الحياة هذه.

ضاق صدري بقلبه منقبضاً، ونور تلقي بكلامها الثقيل على سمعي، كان من الصعب عليّ أن أصدق... اقشعر بدني وأنا أجمع كلماتها من بين دموعها المنسابة على وجه شحب لونه وتعثرت أساريره بنقاب الحزن والقلق حين قالت:

كانت مريضة، تعاني من الحمى، رقدت في فراشها عدة أيام، فتوليت العناية بأمر البيت، الذي وسع علينا موحشاً نحن الثلاثة بعدما هجره شقيقي الأكبر إلى غير رجعة، لكن ما تبدى لي أن نطاق عنايتي قد اتسع واتسع ليطالني جهد ضيافة صحب والدي من كبار ضيوف وضباط.

دهشت حينها عندما طلبت مني والدتي، بعد أن خرج والدي من غرفتها ممتعضاً، أن أضيف أحدهم بنفسي، وأقوم بواجبات الضيافة على أكمل وجه. جلست على الطرف الآخر من حافة الكنبة ملتفة على نفسي منكمشة، لا يجمعني بذلك الرجل الجالس على الطرف الثاني من الكنبة نفسها أي فرصة لحديث مشترك، فتسمرت في جلستي صامتة مندهشة من طلب أمي الغريب هذا. «ما لي أنا والجلوس مع رجال من عمر والدي وأكبر! تمتد كروشهم المتخمة بشتى أنواع المشروبات الكحولية، وتتمايل رؤوسهم بأحاديث تخر من أفواه متراخية كسول مع قطرات الكحول». وعظمت دهشتي حين تركني والدي معه وخرج من الحجرة غالقاً الباب خلفه. ماذا عساني أصنع مع هذا الرجل المسن؟ أي أحاديث تلم أطراف أفكارنا وشتات نزعات وعقائد؟ ترى أي طارئ قد ألم بأبي حتى يتركني مع صديقه وينصرف!؟

نازعت نفسي الشكوك والمخاوف حول الطارئ الذي استعجله،

ودعـاه إلـى الخـروج دون ضيفـه، الـذي قام مترنحاً نوعـاً ما وبحركة تمثيلية اقترب نحو الباب متفحصاً. لم آبه إلى ما يفعله، وبذريعة سكره فسـرت تصرفـه الذي تمادى فيـه مقترباً نحوي، ومحاولاً جذبـي إليه بيدين رخوتين نما النمش عليهما وتكاثر، رائحة الكحول المنبعثة من فمه ضربت صفحة وجهي، فقفزت واقفة، لكنه تشبث بطرف تنورتي ويدي ساحباً إياي نحوه، وأنا في ذهول تام مما يجري حولي. دفعته بكلتـا يـدي هاربـة نحو الباب، كان مقفلاً من الخارج... أدركت ذلك حيـن أدرت المقبض. اسـتنجدت صارخـة وكان المقبض آخر دروع نجاتـي، ومـا من مغيث سـوى العـدم، متواطئاً مـع زعيقي وصراخي الذي صمت أمي أذنيها عنه، وهرب أبـي خارج مسرح الجريمة الذي أعده.

تفوق شـبابـي وأعصابـي الهائجة على شـيخوخته وتصابيه في الجولـة الأولـى، وخرجـت من حجرة الضيوف بعد أن لقنت الضيف درسـاً، تاركة إياه ممدداً على الكنبة يلعق خدوشـاً على يديه ووجهه هي كل ما تبقى له مني.

لكـن هذا الانتصار لحقته خسـارات عـدة، حصدتها على مرأى من والديّ وهما يدفعان بـي نحو وحوش لم يعد يرضي نهمها سوى فتوة وشباب جسدي، أمر أثار حفيظة والدتي وغيرتها التي لمحتها في عينيهـا مـراراً... يـا الله ما عدت أثق بأني كنت في رحمها يوماً، وبأني من صلب ذلك الرجل.

خالـة أقبـل قدميـك (وانحنـت إلى الأرض بصـورة خاطفة عند قدمـي هنـاء، التـي تداركـت الموقف رافعة إياهـا) لا أريد العودة إلى ذلك البيت ثانية... لا أريد، سأقتل نفسي ثانية إن عدت هناك.

تحيـرت مـاذا أصنـع معها أو كيف أتصرف، وعيناها تتوسـلاني قبل لسانها وقد أدركت فيهما صدق نيتها في التخلص من حياة هربت عن جادة الصواب، لتجد في كل مرة نفسـها مهانة مهدورة الإنسـانية في حضن رجل تلقي الحياة في وجهه آخر وهجها.

جلست تنتظرني في حجرة الاستراحة، بعيداً عن أنظار الآخرين حتى نهاية وقت العمل. أكملت ما تبقى من ساعات الدوام، ولا يزال عقلـي يلـوك نفسـه، باحثـاً عـن مكان مناسـب لإيواء نـور من أطماع والديها، اللذين حتماً قد لعب الشـك والقلق في رأسـيهما عن مصير فرختهما. فكرت في أخذها إلى بيتي بعضاً من الوقت، لكني أرجأت الفكرة خوفاً من أن يكونا بانتظارها هناك.

جال رأسي وتاه في مواطن شتى، فأردت لوهلة إقناعها بوجوب عودتهـا إلـى البيـت والتحلي بالصبر قلادة تخنق جيدها يوماً إثر يوم. لم يطاوعني ضميري إن أعيد تلك الحمامة البيضاء مكسورة الجناح والقلب إلى قفص لا يسع أحلامها ولا جناحيها بالتحليق.

حملت لها عند الظهيرة بعضاً من الطعام تسـد به رمقها، ويعيد إلى وجهها بعضاً من لونه الذي شـحب تماماً حين بادرتها بالسـؤال عن ملجأ يأويها بعدما نوهت مترددة أن لا قريب لها ينوي التدخل في أمور عائلتها التي وصل بعضٌ من فحيحها إلى سـمعهم، فاسـتنكروا مبتعدين خشـية أن يطال جبروت سـلطة أبيها وعلاقاته بيوتهم الآمنة الهادئة. لكن نور أضافت متلعثمة عن وجود شـاب تثق فيه معها في الكليـة، وقـد حاصرهـا مراراً بلواعج حبه وتعلقه بها، فلم تجد حينها إلا أن تخبـره بحقيقـة وضعها، مسـتجيباً إلى ندائهـا بالابتعاد عن فتاة في مثل ظروفها، إلا أنه لم ينسَ أن يعدها بمد يد العون والمساعدة.

شعرت هناء بشيء من التفاؤل يطفو على سطح قلبها الغاص بالهموم والمشاكل، حينها قفزت فكرة إلى رأسها، داعية الله أن يستجيب إلى رجاءها ويوفق مساعيها. لتطلب من نور أن تتلفع جيداً بعباءة استعارتها من إحداهن، وخرجت بها من المستشفى متلفتة خائفة من انفضاح أمرهما.

وقبل أن تستأجر سيارة تاكسي، أجرت مكالمة تليفونية من نقالها، كان لها أثرٌ إيجابيٌ ظهر جلياً على ملامحها المتعبة.

بعد تمويه وتجوال في الأسواق، عادت هناء مع نور إلى البيت وضوء القمر شحيحٌ يرسم خطواتهما المتعبة، ويفتح بؤبؤ عينيهما على اتساعه بحثاً في الظلمة عن خيال أو شبح ينتظر قدومهما. ولجت نور أولا ومن ثم هناء التي تفحصت زوايا الشارع قبل أن تغلق الباب خلفها.

تواءمت نور مع مكوثها الصامت في بيت هناء بعد أن اتخذت هناء كل الاحترازات اللازمة وتوخي الحذر، حتى جاءها هاتف قبيل المساء في اليوم الخامس، فما كان منها إلا أن جرت عباءتها على عجل مع حقيبتها السوداء المتهالكة واضعة قدميها في أول تاكسي يمر قربها.

لم تطل في جلوسها مع مضيفتها التي رحبت بقدومها، وسألتها ثانية في عدم التردد بطلب أي مساعدة منها، وأنها عند حد قولها ستكون مصباحها السحري، فأم سعيد لن تنسى تلك الليلة، وهذه اليد التي انتشلت مولودها من موت محقق، وظلت تحفظ الجميل للقابلة هناء التي أخذت من يدها مغلفاً صغيراً في داخله جواز سفر أصدر باسم مستعار إلى نور وفيزا، واضعة إياه على عجل في حقيبتها التي

تأبطتها وهي تنوي القيام لئلا يمضي بها الوقت، ويصبغ الليل بحبره الأسود آخر فلول ضياء فرت هاربة من بطشه.

وعند صباح اليوم التالي اصطحبت هناء نور إلى المطار مع حقيبة صغيرة فيها بعض الاحتياجات الرئيسة وحزمة من المال، حيث ينتظرهما الشاب الذي أحبها مرة، وكره القدر الذي جمعه بها مرات. تفحصته هناء عن كثب، لتقارن صوته، الذي بدا جاداً ومهتماً بأمر مساعدة نور، حين هاتفته قبل أيام مع صورته، فتأكدت من حسن نواياه وصدق رغبته في اصطحابها لترعى والدته المريضة الراقدة وحدها في الأردن بعد مقتل أبيه، وزواج أخته خارج البلاد.

وعند النداء للطائرة المسافرة إلى عمان، سلمت هناء يد ابنة القمر إلى الشاب الذي أغلظ الوعد بحمايتها ورعايتها.

ودعت هناء ضيفتها الصغيرة بدمعة كبيرة تناسلت منها أدمع حتى المساء، مطالبة إياها بدوام التواصل وعدم الانقطاع.

أوفت نور بوعدها وبقيت على تواصل استمر في البداية وتقطع بعد ذلك لتغير ظروف عملها وحياتها، وبعد مرور ثمانية أشهر عليها في رعاية وخدمة الأم المريضة المقعدة، وما لمسته من محبة لم تهبها إياه أمها، وفقدتها حين وافت أم عمار المنية بعد صراع مضن مع المرض، وساعات أرق طويلة، ممددة فيها على فراش يغرق بالأنين كل ليلة.

أمسى وجودها لوحدها معه في الشقة، بعد وفاة أمه، مثيراً لحرجها ورغبتها في إيجاد عمل تستطيع معه دفع بعض من نفقات سكنها، فنزلت إلى الشارع المشبع حد التخمة من البطالة، ومن شباب يتنازعون على أرصفته ومقاهيه.

بـاءت جميـع محاولاتهـا لتحظى بوظيفة بائعة أو منظفة دون أن تقدم تنازلات لرب العمل الطامع بجسـدها، لا بحرصها على العمل أو أمانتها.

تضاءلت فرص العمل أمامها حتى كادت أن تنعدم، الأمر الذي زاد من حدة توترها وخجلها من أن تبقى عالة ثقيلة على أكتاف عمار دون أي مبـرر. حتـى جـاء ذات ليلـة ذلك المبـرر على قدمين ثقيلتين مترنحتيـن أخطأتـا طريقهمـا أو ربمـا ادعتـا الخطأ نحو بـاب غرفتها، وأطالتا الطرق بوجه باب فُتح لها بعد انتظار ثقيل.

عند الصباح.. وجد نفسـه مسـتلقياً على السـرير لدى غرفة نور، رجّ ذاكرته ليقشع بقايا سكر ودوار، مستذكراً بعضاً من أحداث الليلة الفائتة التي ظن أنها حلم وخيالات سكير.

برح الشـقة ممتعضاً من فعله، لم يجد كلمات يسـكن فيها وخز ضميـره ويواسـي بهـا نـور، التي فرت وأخفت نفسـها عنـه في الأيام التالية.

وعد نفسـه أنه لن يشـرب خمراً ثانية وحنث ذلك الوعد مراراً، طارقاً باب غرفتها بإلحاح، ليكمل حلماً يصحو عليه صباحاً وهو في سرير نور.

اعتادت القدمان المترنحتان طريق غرفة نور ليلاً، لم يعد الشعور بالذنب أو الخجل يخدش خاطرهما أو يثنيهما عن طرق الباب، الذي تركته مفتوحاً دون قفل بعد أن أضاع والداها المفتاح.

حـاول فـي بعـض المـرات تبرير موقفـه وتسـكين لواعجه دون جدوى، لكنها في كل مرة توفر عليه جلده لذاته، وترضخ مستسـلمة لقدر وضعها في مثل هذا الموقف، وألبسـها دوراً لا بد أن ترضى به

لتستأنف حياة رخيصة بطعم الحنظل، ظنت مرة أنها تخلصت منها عند أعتاب المطار، لكنها قد لحقت بها في طائرة أخرى.

انتاب هناء القلق من صوت نور، الذي يطرق سمعها بين الحين والآخر، وما يتخلله من نبرة حزينة يائسة تحاول هي إخفاءها، بالابتعاد تدريجياً عن إجراء مثل هذه المكالمات مع هناء، وجر الحديث إلى أمور أعم من تلك لتنأى عن التحدث في أمورها الخاصة التي باتت مرعبة بحق.

فماذا عساها تقول، أخبارها تكلم الفؤاد، صارت بين مطرقة والديها وسندان عمار، الذي صار يتأخر عن القدوم إليها بالأشهر، تاركاً إياها يتبرد فيها الخواء والعوز. ثقل حسابها مع صاحب البقالة المجاور، فلمح لها بإمكانية سده إن هي وافقت.

شرائح اللحم المقدد أمام الطري، أمست المعادلة التي تسد رمق جوعها، الأمر الذي أثار حفيظة عمار حين فتح باب الثلاجة بعد غياب. فرمقها بنظرة تصدت لها متحدية، تاركة إياه في المطبخ يغلي ويفور بخيلائه.

صار فظاً في تعامله معها، حاول تأنيبها تلميحاً تارة وتصريحاً تارة أخرى، لم تصغِ أو ترعَ له بالاً، حتى تمادى ذات ليلة بقسوته وحاول ضربها، فأمسكت بقوة يده المرفوعة نحوها وأزاحتها جانباً، ودخان كلمات يخرج من فمها ملامساً ضميره عندما قالت:

– ماذا تبغي مني الآن؟

ضاعت منه الكلمات وهو يحاول جمعها حين تأتأ متلعثماً تخنقه العبرة:

– لا شيء... لا شيء.

وتراجع عنها خطوات يسحقه الألم ولا تسعفه الكلمات مردفاً:

- لم أكن أتوقع... لم أتوقع...

حاولت نور كبح نيران قلب احترق، وقالت بهدوء:

- ماذا كنت تظنني فاعلة؟

توقفت برهة، تمسح دمعة خذلتها نازلة إلى طرف شفتيها المرتعشتين لتكمل: لقد كسرني الجوع، وقبله أهلي وجشعهم، فرغت الشقة عليّ إلا من الجدران، فهبطت نحو الطرقات أبحث عن فرصة عمل، ولم تصادفني إلا تلك على كل باب طرقته. لست آنية زهور، تأتي لتراها في محلها. ما دمت لا أحملك مسؤولية الإنفاق عليّ، فلا تحملني واجب الولاء والإخلاص.

أجابها منفعلا تكاد تتفجر عروق رقبته:

- لكني... لكني أحب...
- أكمل لِمَ توقفت، أتشعر بالخزي من مشاعرك هذه؟! صدقني لا ألومك، أو أنوي أن أحملك وزر أفعالي.

لم ينبس ببنت شفة، وتسمر في مكانه، خذلته قدماه كما لسانه، تلألأت عيناه بظلال دمعة قادمة أغلق عليها طريق الخروج وفر صافقاً باب الشقة خلفه.

بعد عدة ليال وصل مترنحاً، تنبعث منه رائحة الخمر بشدة، محمر العينين،

وقد طال شعر ذقنه مضفياً منظراً بائساً على ملامح وجهه اللطيفة.

كانت في غرفتها تحاول النوم، وعدم التفكير بما أرقها طوال الليال الفائتة حين دفع عليها باب الغرفة.

في الصباح تبزغ الحقيقة كما الشمس، ويلوذ عمار بصمته المعتاد حين يعي نفسه وهو في فراش نور، الذي استحله كما الآخرون، ووجد له حقاً فيه أكثر منهم، هكذا أنهى مرافعته الأخيرة في محاكمته مع ضميره، ورفعت الجلسة ببراءته لعدم كفاية الأدلة.

اتفقا أن يعيشا سوياً في الشقة نفسها دون أن يتفقا، كلاهما تواءم مع ظروف الآخر، هو يجيء ويذهب من البصرة إلى عمان بلا سابق إنذار، يتغيب كثيراً. صارت الشقة بمثابة فندق أو نزل مريح ودون دفع أية نفقات، فقد أخذت نور على عاتقها دفع أغلبها، لا سيما بعد زيادة عدد زبائنها من ذوي الدخل المريح.

خالتي لا تقلقي... أنا بخير، أموري تسير على نحو جيد.

صوتها المشوب بالحزن وصل متهدجاً إلى سمع هناء وهي تصغي قلقة، لم ترق لها نبرة نور، وتصنعها الزائف بحسن الحال، فقفزت إلى ذهنها فكرة قالتها قبل أن تعيها جيداً:

- نور، ابنة القمر، عزيزتي... أفكر بالقدوم إليكِ.
- خالتي أرجوك لا تزعجي نفسك... أنا بخير كما أخبرتكِ... لا تقلقي.
- لكن لماذا أشعر... أشعر أنكِ...

لم تدع نور هناء أن تكمل جملتها حين قاطعتها قائلة:

- لا أظن أن حالي كان أفضل عندما كنت معهما. على الأقل الآن تستطيع ابنة الليل... أقصد القمر أن تختار الزبون.

وقهقهت بصوت مرتعش متهكم، انقبض منه قلب هناء التي قالت:

- حقاً لا بد من أن آتي لأصحبك معي إلى العراق ثانية،

وضعك لا يطمئن.

- وأنـا أقـول لك اطمئني خالتي... ما من شـيء يدعوك إلى القلق، أنا بخير، فقد تجاوزت كل متاعبي... صرت منساقة لقـدري، أرجـوك لا تزعجـي نفسـك، ولا تدعينـي أشـعر بالذنب لأني أخبرتك.
- نور... نور، أنا من يشعر بالذنب، لم أظن أن الأمور هكذا ستؤول، وأن عمار...
- خالتي، عمار لا شأن له، هي تصاريف القدر.
- الملعـون حاولـت أكثـر من مرة الاتصـال به دون جدوى، يبدو أنه قد غير رقم هاتفه.
- عمـار لا يختلـف عـن غيـره كثيراً، ربما هـو أفضل... بالله عليك يا خالتي كوني منصفة، من يشـتري بضاعة رخيصة مسجاة على رصيف الحياة؟ كيف له أن يرضى بأم لأولاده مثلي!؟ والأدهى من ذلك بجدين مثل أمي وأبـي! خالتي، كفي عن ملامته، لا تلومي جائعاً أمام لقمة سـائغة سـهلة، أنا لا أحمل إزاءه أية ضغينة أو حقد.

تمتمت هناء مع نفسها بكلمات لم تستطع نور فهمها أو سمعها بصورة واضحة، إلا أنها تدرك أن هناء لم تقتنع، وأنها تحمل نفسـها عبئاً آخر إلى قائمة همومها وأعبائها، وذنباً كان من صنيعة يديها حين فكرت بتسفير نور إلى عمان هرباً من استغلال والديها.

حاولت مراراً إقناع نور بالعودة، لكنها ظلت تماطل في كل مرة لئـلا تضايـق هنـاء التي تحاول بشـتى الطرق التكفير عـن ذنبها، حتى أنها وعدتها مراراً بأنها مستعدة لإبقائها في بيتها كواحدة من العائلة،

كانت صادقة في عرضها ومشاعرها تجاه نور التي تشعر هي الأخرى بأن لديها شخصاً تحبه وتستطيع الاتكال عليه إذا ما كشر الزمن عن بقية أنيابه في وجهها.

وفِي كل مرة تفصلان خط الاتصال ببحة في الصوت ودمعة في العين إلى أن يأخذ الشوق والقلق بهناء مرة أخرى لتعاود الاتصال بنور، التي أصبح بقاؤها في الغربة أمراً مقلقاً بالنسبة إلى هناء، لا سيما بعد أن نفض عمار يده منها، وخلع عنه وجه الحمل البريء وطالت مخالبه.

تتفاقم خشية هناء على نور وتشتد عليها بعد كل اتصال، هي في خشية من أن يصلها يوماً نبأ انتحارها، الذي أقدمت عليه مرة.

يراودها هذا الخاطر مراراً، فيضيق صدرها بما قد يخبئه المستقبل من مفاجآت. أضحت حياة هناء مسبحة من المخاوف مربوطاً خرزها إلى بعض، لا يتبدد بعضها إلا بالاستغفار ولعن الشيطان، باصقة عليه مؤنبة عندما يبالغ في وسوسته ورج أفكارها رأساً على عقب.

زاد من ضغط العمل، صراخ وزعيق النساء الماضيات على طريق الوجع والألم لحصاد ثمرة لا تنضج إلا بعد تسعة أشهر من أعمارهن انتفاخـاً، ثقـلاً فـي الخطوة والوزن، مزاجـاً متقلباً صعودا ونزولاً، من وجع الرأس ونحول الجسد المتعب، فتمددت على الفراش في غرفة الاستراحة، تصغـي دون وعـي إلـى أحاديـث زميلاتهـا ومكابداتهن اليوميـة مـن الإزعاج وعـدم التقدير لجهودهن. أصبح بث الشكوى لبعضهـن هـو الطريقـة الأنجـع في تخفيف مصاعـب حياتهن ودفعها للأمـام، ولا يرطـب الحديـث أو ينـدى إلا بإشـاعات من هنا وهناك، فتصدر الدكتور حيدر سارقاً من الآخرين حصتهم في حديث النميمة هـذا. وفغـرت الأفـواه لسـماع آخر مـا تجدد في قصته مـع الممرضة الجميلـة ذات العشـرين ربيعـاً، وما سـتؤول إليه الأمـور معها، أتراها نزوة جديدة من نزواته؟ علاقة عابرة؟ أم حباً استوطن قلبه أخيراً؟

تنوعت الآراء واختلفت، كل واحدة تدلي بدلوها في بئر حياته، حتى وصل إليّ الدور لألقي بدلوي المترع بالهموم والمشاكل، فآثرت الصمت وأنا أتمتم مترددة:

- دعـوا الخلـق للخالـق، ما لكن تحشـرن أنوفكـن في حياة الرجل؟

لم تلقَ كلماتي أي صدى يوقف استمرار ثرثرتهن، حتى أخبرتنا

عدويـة بلطافتهـا المعهـودة، وهدوء نبرة صوتهـا الذي لا يوائم طبيعة عملنـا وخشـونة ظروفنـا: هو حتماً أدرك هـذه المرة الحب الذي كان ينشـده في حياته، أظن أنها من سـتغلق باب قلبه خلفها. لقد لمحت فـي إحـدى المـرات عندما جمعتنا الصدفة ثلاثتنا فـي الرواق بانتظار المصعد، تلك النظرة، عيناه المتعبدتان وهما تطوفان حولها، ابتسامته المطلة من قلب طفل وجد أمه في زحمة سوق وسواد العباءات، كانت ثواني قليلة باحت بنصف قرن من التشرد والضياع في أحضان باردة لـم تجـد يومـاً طريقها إلـى قلبه... بعد هذا الموقف أجزم أنه الآن قد وجد حب حياته، لن يفرط بها كما الأخريات. لا ألومكن إن لم تثقن بكلامي، أنا نفسي كذبت ما أبصرته عيناي، ولربما حسدتها... بالطبع تمنيت لو أن أحداً رمقني بتلك النظرة، تزلزلت أعماقي، ارتبكت وأنا وسـطهما، فارتدت خطواتي متراجعة فاسـحة لمسـار تلك النظرة أن تبلغ هدفها دون تشويش حاسد أو فضولي.

آه... ثم آه، ماذا عسـاني أن أقول لكنّ يا صديقات، سـوى أني أبيـع نصـف عمـري لأجل تلك النظرة، لأجل ذلك الإحسـاس الذي رافقها، اقشعر بدني، تصاعدت وتيرة دقات قلبـي، آه ليتني كنت...

لم تدعها أحداهن أن تسترسـل في أمنياتها حين قالت سـاخرة تضحك:

– ويحـك يا عدويـة، ألـم تتعلمـي بعد؟ بعـت نصف عمرك لأجـل ذاك، والآن توديـن أن تفرطـي بالنصـف الآخر، أما تحتفظين لكِ بشيء منه؟

ضحكت عدوية هي الأخرى مع صديقاتها اللائي يصفنها دوماً بالحالمـة المجنونـة، التـي ضاعـت معها كل نصائحهن وإرشـاداتهن

مثلما ضاع عقلها حين وثقت بكلامه وباعت كل مقتنياتها الثمينة لتضعها طوع يد زوجها، الذي شعر أن الوطن يخنق أحلامه، ويدفن موهبته الجميلة غير مبالٍ.

وعندما لمح بأن السفر والعيش بعيداً خارج حدود الظلمة حتماً سيصقل تجربته الفنية ويذكيها، لم تمانع بل على العكس وضّبت ملابسه فرحة، مؤمنة بأنه قد وجد طريق النور والخلاص.

- كم أنت مجنونة يا عدوية، ألم تجزعي من انتظاره كل هذه السنوات! من احتساب ساعات النهار ترقباً! وأرق الليل جزعاً وخشيةً من صوت عقلك الذي تلجمينه بأعذار ومبررات لا تقنع طفلاً؟!

- آه... منا نحن النساء ثم آه... يبدو أننا قد جُبلنا على أن نكون جسراً للعبور حيث آمالهم وطموحاتهم، آه لو نملك بعضاً من أنانيتهم ونزراً يسيراً من قلوبهم الدائمة التقلب والانقلاب.

وأنهت كلماتها الأخيرة بتنهيدة وزفرة قاطعتها أخرى قائلة:

- آن لكِ يا عزيزتي أن تغلقي باب الانتظار، تكفكفي دمع كل ليلة، ترمي مفتاح الصبر في وجه الفرج الذي تأخر قدومه، وتفتحي نافذة الأمل، والحمد لله على النوافذ المشرعة حينما تُغلق الأبواب.

ثماني سنوات لم يرسل خلالها إلا رسالتين مقتضبتين لم تبل كلماتها ريقك الجاف تصبراً، وأظنه في الثانية قد لمح بين السطور، أفشى بين الكلمات والنقط عن رغبته في فك قيد أسرك ساعة تشائين.

حاولت عدوية الاعتراض بإيماءة، لكن زميلتها استأنفت حديثها

وهي تراقب ملامح وجه عدوية التي أخذت بالانكماش، قائلة:

- طعم الحقيقة مر، لكن لا محال من تجرعه حتى نشفى، أرجوك لا تبقي مريضة.

ما بالكِ يا عدوية، ألن تكشفي عن وجه الحقيقة؟.... طلقيه، وانزعي عنك ثياب الوفاء لذكريات تقهقرت عاماً بعد عام. رفيقتي لا تترددي... الحقي قطار العمر وعوضي ما فات. حان الوقت لتجلي جدار القلب من سخام الماضي ورماد الحب الذي كان.

فسليم يستحق منك بداية جديدة، هو الآخر تمسك بالصبر آملاً بأن تكوني أنت الفرج، فلا تطيلي حبل انتظاره وتصبره. هو مكافأتك، فخذيها بلا تردد... مع الوقت ستدركين أن شراع قلوبنا قد يمضي بِنَا أحياناً إلى الوجهة الخاطئة.

ساد الصمت بينهن وكأن كل واحدة منهن أخذت تتفحص شراعها وتتأكد من وجهته، حتى بادرت إحداهن هناء مستفهمة:

- وأنتِ يا هناء لم تشاركينا الحديث (وأردفت بابتسامة ماكرة) هل سلب الحب يوماً عقلك، وأبحرت سفينتك عكس التيار؟

تضامنت الأخريات في الإلحاح على هناء بالسؤال والمزح معها في أن تقص عليهن ولو مغامرة واحدة.

سخرت ضاحكة رغم شدة إعيائها وتعبها ثم قالت:

- مغامرة واحدة، بل قلن مغامرات.

واستمرت تضحك ساخرة، تتلوى همهمات على طرف فمها، لم تصل إلى حد سمعهن، فطالبت إحداهن بالإجابة وعدم الهروب، وحين أحست أن هناء ليست في مزاج جيد بادرت هي قائلة:

- لا أظـن أن هنـاء قـد صادفـت الحب في طريقهـا يوماً، لـم تهبها الحياة هذه النعمة.

فأجابت هناء بتوتر واضح:

- قصـدكِ نقمـة، لا، اطمئنـي عزيزتـي، كان لي حظٌّ وافرٌ مع هذه النقمة.

هنا اتسعت عيونهن، وفغرن أفواههن، وكل واحدة ترمق الأخرى بنظرة دهشة لتتأكد مما سمعته، ولسان حالهن يقول:

هنـاء... هنـاء المـرأة التي تواصل الليل بالنهـار عملاً، وجدولاً زاخـراً بالمتاعـب والأحـزان، متى!؟... بالله عليـك متى اقتطعتِ هذا الوقت من ساعات حياتك المملة الراكدة لتواعدي الحب!؟

- نعـم، نعـم، مـا بالكـن تنظـرن إليّ هكـذا؟! لقـد كنت في سـالف زمان أيضا فتاة شـابة (وابتسمت، وأردفت مازحة) لا يغرنكن الشيب الذي أشرق برأسي، فأنا لم أولد به، ولا بهـذه التجاعيـد التي تنذرني بزحف الشـيخوخة ومتاعبها. لقد انغمسـت بهذه النعمة على حد قولكن، واغترفت من فيض دموعها وألمها الكثير الكثير.

قالت إحداهن بشيء من الأسى:

- يبـدو أنـكِ صديقتـي لم تلقي من الحـب إلا وجهه المعتم الكئيب، فكيف لي أن أقنعك بأن له وجهاً آخر سعيداً!

- لا تبالـي عزيزتـي، لسـت فـي صدد البحث عـن وجوهه، فقـد شـربت منـه حد الثمالـة. هكذا هو الحب يسـتدرجنا حتى نقع، ليقف هو ملوحاً بانتصاره، سـاخراً من هزائمنا المتكررة أمامه، دون أن نتعظ، بنصائح ضحاياه، وكأن كلاًّ

منا يريد أن يذوق طعم تلك السقطة، يقيس مرارتها بدموعه وكم لوعته.

صاحت إحداهن مهرجة:

- هيا، دعكن من هذا الحديث، وتعالين نتناول الفطور، قبل أن يفقدنا الحب شهيتنا مثلما أفقدنا قلوبنا.

اجتمعن في حلقة صغيرة على الأرض وعزفت هناء عن الانضمام لهن حتى مع إصرارهن على مشاركتهن الفطور ولو بقدح شاي شربته على بطن فارغة مع كسرة خبز ساخنة.

حاولت مجاملتهن بالإصغاء والمشاركة برأي أو هزة رأس لكنها لم توفق في ذلك وسرحت بها الخيالات بعيداً، ليس بعيداً حين تجرها اليه، وكل شيء يؤول عند النهاية نحوه. لا يزال طيفه يحاصر بنات أفكارها، يغريهن بالبقاء عنده وقربه، فحيثما كانت وجهتها كان هو أمامها، تقتفي أثره بين الذكريات، فِي أماكن لم تصل إليها قدمه، وزمن واصل سيره دونه إلا هي التي بقيت تمني نفسها بحياة أخرى ستجاهد فيها أيما جهاد لتحظى به، في حياة أخرى لن تسمح له أن يتركها تحت أي ذريعة أو عرف عاطفي. مجنون... كم كنت مجنوناً يا رياض! كيف تصورت أني سأستبدلك بأخيك؟ أي غباوة وقعت في فخها! كيف ضحيت بي؟ كيف اقتنعت أن هجري هو الطريق السالك المعبد لأخيك نحوي؟

آه... كيف سمحت للحياة أن تلعب لعبتها معنا؟! وأن يخط القدر بيديه قرار انفصالنا! كيف استطعت؟... كيف استطعت أن تجعل مني مسخاً لا يعرف الراحة أو الهناء؟ لماذا لم أجتز غدرك وتضحيتك بي كقربان لأجل حرب لم تخضها ورفعت راية السلام

مـن أول نـزال، مـن أول رجاء تفوهت به والدتك، أكنت رخيصة أمام التزاماتك العائلية؟ فرجحت كفتها وخف تمسكك بـي.

آه يا رياض، تمر الأيام طويلة بلا طعم دونك، وليال كئيبة ترقب نجومها سـهدي وانهيار أفكاري وتداعيها على واقع موحش أتنفسـه وحدي.

ألم فقدك صعب لا يبارحني، ولا أحاول علاجه أو التشافي منه، لربما كان هو دافعي للاستمرار في هذه الحياة، أيعقل أن هناك أناساً يعيشـون ليتجرعـوا ثمالة ألمهم بـكأس الذكريات الموجع!؟ أمعقول أن نرقص على جروحنا وعلى إيقاع تأوهاتها ندمن!؟

حبـك يا ريـاض رفعنـي فـوق غمامـة أمطرتنـي ظمأً مزمنـاً إلى وصلـك. ولكـم أخشـى أن يطـول بـــي العمـر، وتمتد بـي السـنون، فتتناسل شوقاً ولهفة، يا الله... إني أفقد صوابـي يوماً إثر يوم... ليتني ألحـق بـك، وكل رجائـي أن لا تكـن كريماً، فتسـخو بـي ثانية لأجل قضية سـامية أخرى من قضاياك، تمسـك بـي مرة، لا تفلت يدي... دعني أشعر أني أستحقك رغم كل عيوبـي وسيئات زمن فاض عليّ بها من أوسع الأبواب.

ريـاض، قضيـت عمـري وأنـا أخـاف مـن أن يـزل لسـاني بحروف اسـمك، فيلمحـون فـي عينـيّ موطنك، كم حاولت مرات ابتلاع اسـمك الهـارب مـن رأسـي إلى لسـاني حيـن يحادثني صالح... ربـاه إن كان قد أبصر ظلالك تطفو على أحلام يقظتي وتؤرق مناماتي! كنت الحاجز الذي أوقفني عن حب أي رجل آخر سواك. فأي لعنة كان حبك وأي داء؟!

تنبهت إليها إحداهن فأومأت ساخرة:

– أم أمجد... أين أخذك الخيال؟

واستمرت تضحك مقهقهة، مستبعدة الظنون من أن هناء قد التاع قلبها يوماً من الحب، أو حتى طرق بابها كعابر سبيل ذهب على عجل في طريقه. لكن طبعها الفضولي تغلب على ظنونها فقاطعت استرسال هناء في شرودها متلمظة العينين قائلة:

- أخبرينـا عنـه... لا بـد أن كان لـك حبيـبٌ يوماً أو كان لكِ معجب؟

تمتمـت هنـاء مقطبـة الحاجبيـن بكلمـات قليلـة لـم تصـل إلى سـمعهن، وتراجعت متكئة بظهرها على السـرير. كان الصداع يهاجم رأسها الضاج بالهموم والمشاكل ولم ينفع معه قدح الشاي، ففتحت حقيبتها المعبأة بصنوف من الأدوية لأمراض مزمنة عافها الزمن فيها ورحل، وتناولت حبة أسـبرين، متجاهلة صاحبة السـؤال، التي ظلت فاغرة الفم تنتظر بضع جواب مع الأخريات اللاتي تحمسـن لمعرفة ذلـك رغـم شـبه يقينهن بـأن هناء ما فرطت بقلبهـا يوماً لأجل رجل. هي زميلة بعضهن منذ سنوات بعيدة ولم يحدث أن هزها الوجد مرة.

تجاهلت كل من خطب ودها وتقرب إليها، حتى قالت إحداهن بنبرة وملامح آسفة:

- مسـكين أبـو قصـي، هو لـلآن يتصيد أخبارهـا كلما التقى بواحدة منا... يا الله كيف وقع في شراك قلب لا يرحم... هو لم يكف عن حبكِ، حتى بعد أن تزوج واستقر الشيب في رأسه منازعاً خيوط الليل الأخيرة في البقاء. صار له من الأولاد خمسـة، ولا تـزال عينـاه تتلون بأطياف قوس قزح مثل طفل حين يطرق مسامعه ذكر اسمك في حديث. رباه ما أشقى قلبه وما أقساكِ... ما أقساكِ!!

وباهتمام بالغ سألت أخرى:

- بالله عَلَيْكِ يا هناء ألم تجدي في قلبكِ فسحة ولو قليلة لأجله؟ لأجل ذلك الوهج الذي لم ينطفئ بعد كل هذا العمر. لا أعلم... هل أشفق عليه أو أشفق عَلَيْكِ أنتِ؟... أظنك تستحقين الشفقة أكثر منه، نعم تستحقينها أكثر منه. من له قلب حجري فُخرَ في مرجل، أولى بالشفقة.

وواصلن الثرثرة موجهات أقصى التهم إلى هناء، التي لم تنبس ببنت شفة مكتفية بابتسامة حزينة طفت على طرف فم يقاوم دبيب خطوط زمن تسرب من يدها ككف ماء.

تفرق جمعهن، إلا هي بقيت على السرير في غرفة الاستراحة متعبة مرهقة.

استعطفت النوم، متقلبة يميناً ويساراً تطرد فكرة من هنا وتغلق الباب بوجه أخرى، ولم تستطع غلق عينيها إلا على هواجس متضاربة، تتدفق نحو رأسها فتكف عن التجديف كي تغرق... ما عادت اليوم قادرة على المواصلة.

حاولت النهوض، لكن قواها الخائرة لم تسعفها في الوقوف على قدميها، وحين حاولت ذلك أحست بدوار كاد أن يهوي بها أرضاً لولا أنها تمسكت بحافة السرير مستنجدة منصاعة لرغبة جسد أرهقته طويلاً.

جلست شاحبة ضعيفة، يضخ جسمها حرارة، وأنفاساً ساخنة، عاجزة عن فعل شيء سوى الحملقة إلى الفراغ بعينين متورمتين حمراوين.

سحبت الغطاء نحوها في مبادرة لاستقبال ذؤبات نعاس، أخيراً ترفقن بها ملبيات.

توارت الشمس هذا اليوم خلف سحب رمادية، تلبدت السماء بهن متثاقلة تنذر بزخة مطر أخرى. استفاقت هناء من نومها، وأزاحت طرفاً من ستارة النافذة التي تتصدر أحد أضلاع الغرفة المواجهة للباحة، حيث تركن سيارات الأطباء والمنتسبين.

وعلى هدي الضوء المنساب بهدوء نحو الغرفة، استدلت خطواتها إلى مفتاح المصباح، وأدهشها كيف مضت الساعات على ظهر عقارب عجوز لطالما تلكأت في مسيرها. ففتحت حقيبتها الجلدية السوداء تبحث عن نقالها الذي أخرسته منذ أن خرجت من البيت فجراً لتستدل على الوقت فقط، لا على عدد المكالمات الفائتة المستنفرة قلقاً عليها، والتي كانت في معظمها من ابنتيها وأختها وفاء.

صادفت في الردهة إحدى الزميلات التي بادرتها بالقول:

- كنتِ تغطين في نوم عميق فلم نود أن نوقظك، رغم نفاد وقت الوجبة الصباحية! أرجو ان تكوني بخير عزيزتي.
- لا عليك... أنا... أنا بخير.

ودت هناء أن تكون مقنعة في إجابتها فأردفت قائلة:

- اطمئني فكل شيء على ما يرام، وعكة بسيطة وحمى عابرة.

بنبرة يشوبها التعاطف والتفهم قالت الأخرى:

- رجاء، لا ترددي في طلب أي عون أو مساعدة.
- حتماً هو كذلك، لكن لا تقلقي فلا شيء يدعو إلى هذه النظرة المغروسة في عينيك، هي متاعب البيت والعمل، ولا شيء أكثر.

واستعدت هناء للتحرك مودعة زميلتها التي قالت:

- فقط لا تنسي إننا هنا، وعلى الدوام.
- سلمتن جميعاً، هذا عهدي بكم.

وأتمت طريقها متباطئة الخطى مثقلة، تلف عباءتها حولها كدرع يصد عنها عيون المارة الفضولية. وقفت برهة عند موقف الباصات بانتظار الحافلة، التي كان نصفها فارغاً، فاحتلت هناء كرسيها المجاور للنافذة كعادتها.

الظلام بدأ يرخي سدوله، مصابيح السيارات وأضواء المدينة توقظ في نفسها، ذلك الشعور الطفولي الغامر الذي لم يكبر، وظل يتأرجح على الذاكرة، فتلمع عيناها حبوراً من تلك الأنوار المتقاطعة المتداخلة ببعض، والنسيم البارد يداعب وجهها الشاحب حين جرتها قدماها نازلة من الحافلة عند مدرستها، متوسطة المروج التي تبعد مسافة سبع دقائق عن البيت مشياً. لا تدري لأي سبب طاوعت قدميها، وقفت قرب بابها المغلق على صدئه، نوافذها المكسورة، وكأنها تراها لأول مرة. تفجرت الذكريات متلاحقة وعلقت بتلك الدقائق التي قضتها تسير على بعد خطوة من رياض الذي تقدمها ماشياً يستدل ببعض المصابيح الخافتة، على الوحل والمطبات منبهاً إياها، هي التي لو تمرغت فيها ما كان ليضير معها شيءٌ، أو يفقدها شيئاً من الفرحة، الدهشة والحماس، حين لمحته واقفاً عند باب

المدرسـة، يسـتند بإحـدى قدميـه وظهـره إلى عمـود الكهرباء وضوء المصبـاح البرتقالـي يغازل ثنايا شـعره، ويغطي بعضاً من وجهه تاركاً للظلمـة أن تسـرق منـه نصيبـاً. وقفة مثالية لتصويـر الظل والضوء في لوحة لا يتقن رسـمها، والتقاط مواطن الجمال من شـاب يقف على أعتاب المراهقة مودعاً، إلا فنانٌ عظيمٌ.

تقدمـت نحـوه مرتابـة من تواجده، لم تتوقع أن أمها من بعث به إليهـا بعـد أن تأخـرت عن موعد قدومهـا إلى البيت، فتذكرت أنها لـم تخبرها عن درس الفيزياء الإضافي الذي تلاشى من ذاكرتها حال أن رأت رياض. لن تكفي كل الكلمات وعبارات الامتنان لذلك النسيان الجميـل، ولقلـب أمها الـذي حملها على الطلب من رياض بالتقصي عنها من المدرسة، «آه أمي... لن أنسى ذلك المعروف لكِ».

لم يتفوها طوال الطريق بأي حديث سوى كلمات متقطعة قصيرة خرجت متباطئة من فم رياض وهو يشير بيده إلى أجزاء الطريق الصالحة للسـير، ملقيـاً باللـوم على المُدرسـة التي تماهلـت في أداء واجبها في الأيـام السـابقة مـا اضطرهـا إلى التعويـض عنه، بتأخيـر الطالبات عن الوقت المحدد للعودة، والتسبب بالضيق والقلق لذويهن.

سارت دون هدي منها، تتعقب آثار ذكريات تقاوم نزيف النسيان، تعثـرت قدماهـا مـرة تلو الأخرى، فلا تزال مصابيـح أعمدة الكهرباء شحيحة بضوئها، ولا يزال قلبها يخفق بشدة كما المرة الأولى.

عند مدخل الحي اسـتوقفها الأطفال في الشـارع وهم يتحدثون بحمـاس عـن مولـود صغير وجد مرمياً في مكب النفايات، نبه صوت بكائه عامل البلدية فحمله بين ذراعيه مسـتغفراً ربه، شـاكياً له شـرور عباده.

نـوع مـن الطمأنينـة يلج فؤادهـا، وهي تصغي لحديـث الصغار وتسـتفهم منهـم عـن مصيـر المولـود... المولود يسـلم إلى الشـرطة، والجاني حر طليق... يا لسخرية الأقدار.

قرب البيت بعدة أمتار، هالها منظر جمع من الناس يتجمهرون أمام بيتهم، فتهالك ما بقي من قواها وكاد أن يغشى عليها، في لحظات وجيزة حملتها الظنون إلى ألف محمل، سحبت قدميها ثقيلتين وهي تشـق طريقها بينهم دون أن تجرؤ وتسـأل أحدهم عن السـبب، فبادر أحد الجيران بتقديم تعازيه الحارة في فقيدهم الذي وصل خبر موته فـي بـلاد الغربـة قبـل وصـول جثمانـه، فتجمع الجيـران على صوت صراخ وعويل وفاء ولطم خدودها على الأحلام التي شيّعت زوجها إلى مثواه الأخير البارد، بعد نوبة قلبية فتكت به.

ولجـت هنـاء الخصيـب باحة الدار، وعلى وجـوه تعتمر الحزن والوجوم سارت نحو حجرتها، ارتمت متهاوية على الفراش، أسدلت جفنيها مستسـلمة، تسـلل الخدر إلى جميع أنحاء جسـمها، تراخت حواسـها وقواهـا، تلاطمـت الصور في شـريط سـريع، مـرت حياتها أمامها صوراً جلية متتابعة بأمان تام... نور ساطع شديد يأخذها نحوه، تخذلهـا الجاذبيـة، فتحلق خفيفة روحها نازعة عنها أسـمال خمسـين عاماً.

تمّت

17 ديسمبر 2017

ضوء برتقالي

نادية الابرو

لم أعرف عنه شيئاً منذ ذلك اليوم المشؤوم، لقد فرقونا عن بعض. كذلك فصلني المحقق عن أم رياض وبنتيها حين قرأ اسمي في الملف، أرجأ التحقيق معي إلى أكثر من مرة، بقيت في حجرة صغيرة لوحدي، لم أرجع إلى الزنزانة معهن، لكنني من تلك الحجرة المنعزلة تهادى إلى سمعي صوت عويل وصراخ رجال مرعب يشق ظلام الليل وسكونه، فيقشعر بدني، وترتجف أوصالي من صوت الألم وهو يستنجدني عبر فتحة عتبة الباب السفلية، التي سمح السجان لها أن تمرر لي بصيصاً من ضوء مصباح مسمرٍ على الحائط عند آخر الممر ينازع.

توزيـع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
nwf.com
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN: 978-614-01-2659-6
9 786140 126596